8me Année No. 364

Lundi - 24 - 6 - 1940

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

السنة الثامنة « القاهرة فى يوم الاثنين ١٨ جمادى الأولى سنة ١٣٥٩ — الموافق ٢٤ يونيه سنة ١٩٤٠ » العــــدد ٣٦٤

الفهـــــرس

فرنسا تنهار ؟ !

سبحانك اللهم مالك الملك وصاحب القدرة ! أفى أقل من دورة القمر تخشع باريس محراب الأدب للقوة ، وتخضع فرنسا منجم الذهب للمادة ؟

أفى أسرع من كسرة بولندة والنرويج وهولندة والبلجيك ينهزم أبسل جيش على الأرض ، وتنهدم أرفع أمة فى التاريخ ؟

أبعد القارعة الكبرى ونجاة (فوش) من (فون كلوك) بالمعجزة الفاجئة يخلد (بيتان) و (فيجان) إلى الدعة ، ويسترسلان إلى النعيم ، ويطمئنان إلى الأمن ، ويسالمان الأحداث فى أفياء «ماجينو» ، ويهملان الشباب فى أفناء (سان سير) ، فلا يهتمان بسلاح ولا يفكران فى خطة ؟

لقد كانت سيدان فى جسم الدفاع الفرنسى عرقوب أخيل : جثا فيها نابليون الثالث أمام بسمرك ، فلم يستطع (تيير) و (غمبتا) أن ينقذا شرف فرنسا ويفديا عاصمتها إلا ببذل الألزاس واللورين وخمسة مليارات من حر الذهب . وانخرع فيها جيش (كوراب) فانثغر عندها خط الدفاع الرئيسى فوقعت الكارثة التى لا حيلة فيها ولا نجاة منها . وليس يدرى إلا الله ماذا يملى الدكتاتوران على فرنسا الضارعة من شروط الصلح فى (فرنكفورت) الثانية . فكيف غفل القواد الفرنسيون عن هذا الثغر فلم يحصنوه ويؤمنوه ؟

لقد قال رئيس الحكومة الفرنسية : إن القيادة ارتكبت أخطاء لا يتصورها العقل ؛ وأشار رئيس الوزارة الإنجليزية إلى تهم لا يرى الوقت ملائماً للافضاء بها . ونحن نعيذ فرنسا مثل الوطنية المالية ونموذج العسكرية الرفيعة أن تكون ميداناً لجيش المتلرية الخامس ؛ فما علم الناس على ضميرها الوطنى من سوء ؛ وإنما نعتقد أن الديمقراطية دهاها ما دهاها من بطر الغنى وغرور الأمان واعتقاد السلامة . فلو أن الحلفاء يوم صرعوا الأفعى قطعوا ذنبها ورأسها لما تفتحت الجحيم عن شياطين النازية الذين زلزلوا الدنيا وبلبلوا العالم . ولكنهم دوخوها وسلخوها وتركوها فى فجوة من الأرض تتحوى وتتقوى وتستمد ، وانطلقوا فى جنتها الفيحاء ينعمون ويقصفون حتى أذهلتهم نشوة الفوز عن كيد الموتور وحنق المقهور ، فأغفلوا الحيطة وأهملوا العدة إلى أن انفجرت عليهم السموم من كل وجه. والدولتان الحليفتان قد اعترفتا بهذا الخطأ الذى جر عليهما هذه النكبة . فقد قال المستر تشرشل فى خطبته الأخيرة : « لقد انهارت قوى العدو فى سنة ١٩١٨ فجأة . فشاءت حماقتنا أن نلقيه جانباً ثم نستنيم إلى سكرة الفوز » . وقال المرشال بيتان فى ندائه الأخير : « بعد انتصارنا على الألمان فى سنة ١٩١٨ تغلب فينا مرح السرور على روح التضحية ، وحرص الناس أن يأخذوا أكثر مما أعطوا ، واستشمروا برد الراحة فأراحوا أنفسهم من عناء الجهد »

لذلك لم يكن بالعجيب أن تعقم فرنسا أم الأبطال فلم تنجب فى زهاء ربع قرن من القادة العباقر من يخلف جوفر وفوش ، فاضطرها الأمر أن تلقى بمقاليدها إلى رجال المدرسة العسكرية القديمة كنامالان وبيتان ممن أوهنت السن العالية عواتقهم فلا يقوون على حمل النجاد

كذلك لم يكن بالعجيب أن يفجأهم النازيون بالخطط المبتكرة والأسلحة الحديثة، فيقفوا حائرين ذاهلين أمام الدبابات التى تقذف اللهب وتعبر النهر ، والطيارات التى تنقض كالصاعقة وترتفع كالقذيفة ؛ فيذهب غاملان ويجىء فيجان ، ويستقيل رينو ويتولى بيتان ؛ ولكن القدر القاهر فوق الناس يأبى إلا أن يكفّر المخطئ ويخسر الغافل

ليت شعرى ماذا قال الفرنسى الحزين المهان المحطم حين سمع المرشال بيتان يقول ليلة الأمس فى أول ندائه : « إننا فى قلة من الجنود ، وقلة من الأسلحة ، وقلة من الحلفاء ، ولذلك انهزمنا »

لعله قال : وأين إذن يا مارشالى العزيز السمى الذى سميته والمال الذى أدبته ؟ إن فرنسا وانجلترا ومستعمراتهما يبلغون سمائة مليون نسمة ، فهل يجوز على مثل هذا العدد القلة والضعف لولا أن هناك خطأ من الإنسان أو خذلاناً من الله ؟

لقد برهن الفرنسيون فى معركتهم الخاسرة أنهم جديرون بمكانهم من ثبت الشرف وتاريخ البطولة . وما غلبوا إلا لأن الديمقراطية التى يعتقدونها لا تفكر إلا فى السلم ، ولا تتسلح إلا بالعهود والمواثيق والقوانين والشرف ، وأن الدكتاتورية التى يعادونها لا تفكر إلا فى الحرب ولا تتسلح إلا بالحديد والنار والدعاية والخيانة والكذب

على أن الله عوّد فرنسا العريقة أن يحفظ عليها الشرف إذا شاء أن تخسر المعركة. وبقاء الشرف ضمان لبقاء العزة. والعزة حافز دائب الوخز يدفع إلى الحياة بالموت ، ويرفع إلى السيادة بالتضحية ويقيننا أن هذا الصلح الذليل الذى طلبه العسكريون عارض من اليأس أصابهم فى حال سيئة . أما سائر الفرنسيين فى القارة وفيما وراء البحر فسيختارون المنية إذا خُيّروا بينها وبين الذلة

***

إن فرنسا المنكوبة ضحية جديدة لجبروت العلم الفاسد . والعلم الفاسد هو الذى قصدناه بالغضب فى مقالنا الذى عقب عليه صديقنا الأستاذ العقاد . وهو الذى عناه المستر تشرشل فى بيانه بقوله : « إننا إذا انهزمنا سقط العالم كله فى عصر من الظلام سيكون أطول العصور وأشأمها بفضل العلوم الفاسدة »

وفساد العلم أن يضع الإنسان فيه شهواته الدنيا فيجعله شراً خالصاً لا خير فيه

ورحم الله جان جاك روسو فقد أجهد قريحته فى التدليل على أن العلم يفسد الإنسان(١)؛ ولو تنفس به العمر إلى عهد النازية لأيقن أن الإنسان هو الذى يفسد العلم!

احمد حسن الزيات

(١) Discours sur les sciences et les arts

مدينـــــة النور

تعانى ظلام الخطوب

للدكتور زكى مبارك

قُضِىَ الأمر وسقطت باريس بين أيدى الألمان !

فمن كان يستبعد أن تميد الجبال فليعرف اليوم أن الوجود لا يعرف المستحيل . ومن كان يرتاب فى « يوم القيامة » يوم « الفزع الأكبر » فليتصور الساعة التاريخية التى اعترف فيها الجيش الفرنسى بأنْ لا فائدة من الدفاع عن باريس

ولكن أى جيش ؟

هو جيش صام عن النوم والطعام سبعة أيام إلى أن لم يبق من قواه غير أشلاء ، وكان مع ذلك يحب أن يقاتل إلى أن يبيد وهو يذود عن باريس ، ولكنه خاف على ذخائرها الغالية فقرر أنها « مدينة مفتوحة » ومضى يقاتل قتال اليائس المستميت فى مواضع لا قِلاع فيها ولا حصُون

إذاً حقت المخاوف وسقطت باريس ، باريس صاحبة الحق على جميع الشعوب بفضل ما علمت الناس أصول الثورة على الظلم والاضطهاد

فإن قال قائل إن باريس هى عاصمة فرنسا الاستعمارية، فليذكر أنه لم يَثُر ثائر على الاستعمار فى مَشرق أو فى مغرب إلا وفى روحه جذوة من النار التى أوقدتها باريس للغضب على استعباد الشعوب

أقول هذا وقد لامنى صديقٌ على التوجع لمصير فرنسا فى مقال نشرته بجريدة الأهرام منذ أسابيع ، وكانت حجته أن فرنسا صنعتْ فى الشرق ما صنعتْ ، وأنه لا يجوز الحزن على أمة تحملها القوة على أن تبغى وتستطيل

وهل كنت أجهل عيوب الأمم الاستعمارية حتى يدلنى عليها ذلك الصديق ؟

إن الأسد هو الصورة الفظيعة للبطش والفتك والافتراس، ولكن هل يشمت الحرُّ بالأسد حين يراه فى مدارج الضيم والاستذلال ؟

ذلك حالى فى التوجع لفرنسا الجريحة ، وقد حاربتها بقلمى مرات حتى صح لوزير الخارجية الفرنسية أن يمارض فى منحى وسام الأكاديمى سنة ١٩٣١ وهو سرٌّ لم أذعه قبل اليوم ، وما أذيعه الآن إلا ليعرف الصديق المتعتِّب أنى لا أهتم بغير المعانى. وقد مُنِحتُ ذلك الوسام بعد تلك الجفوة فى سنة ١٩٣٦ فلم أر فيه إلا تحية لرجل يصادق فرنسا صداقة علمية لا سياسية .

ومن كان فى مثل وطنيتى فهو فوق الشُّبهات والظنون ، والصدق فى الوطنية من أشرف الأرزاق

إن الضعيف هو الذى يشْمتُ بالقَـوىّ حين تَزِلّ قدماه ، فليعرف ذلك من يحس الشماتة بمدينة النور ، على عهودها الزواهر أطيب التحيات !

وهل أملك إخفاء حسراتى على ما صارت إليه باريس ؟

وهل يستطيع أديبٌ ألمانىٌّ أن يُخفِى لوعته على مصير تلك المدينة وهو عدوٌّ حتى يستطيع أديبٌ مصرىٌّ أن يخفى لوعته وهو صديق ؟

حدثتنا البرقيات أن الجنود الألمان طافوا بشوارع باريس وهى خالية ، فأىُّ أديب لا يتفطَّر قلبه حُزناً حين يسمعُ أن شوارع باريس عرفت الهدوء لحظة من زمان ؟

هى لفتة من لفتات الدهر الغادر الذى يرى كسوف الشمس وخسوف القمر ضرباً من ضروب المزاح

هى وثبة من وثبات القدر الذى يزلزل الوجود حين يشاء

فمن كانت عنده بقية من الصبر على مكاره الأيام فليتفضل علىَّ بكلمة عزاء لأتناسى أصدقائى فى باريس ، أصدقاء العهد الجميل يوم كنت طالباً فى السوربون ، السوربون التى صارت اليوم قفراً يباباً لا يطوف بأركانه غير الشامتين من غُلْف القلوب

باسم القوة غُزِيت باريس ، وذلك جزاء وِفاق ، فليس فى باريس مكان إلا وهو نَدِىٌّ الثرى بالدماء المسفوكة فى سبيل الحرية ، والحرية من أسماء القوة ، والرجل الحرُّ لا يرضى الموت بغير السيف ، وكذلك تستشهد باريس . فإن استطاع الألمان أن يخمدوا اللهب الذى يتوقد فوق قبر « الجندى المجهول » تحت « قوس النصر » فسيذكرون بعد حين أن تلك الجذوة ستنقلب إلى سعير يفتك بجماجم الأضغان ، ويرد الدنيا إلى عهدها القديم يوم كانت دار علوم وآداب وفنون ، كما كانت لعهد باريس قبل أن يحولها الغزو إلى أشباح لا تملك الجواب بغير الصمت البليغ !

إن لبست باريس أثواب الحِداد فى سنة ١٩٤٠ فقد ألبست برلين أثواب الحِداد فى سنة ١٩١٨ . والحروبُ قصاص ، وكما

يَدين الفتى يُدان . وهنيئاً لمن يحمل السيف فينتصر فى وقائع ويَنهزم فى وقائع ، فما الحياة الحق إلا عراكٌ ونضال وقتال

ومن ظنّ ممن يلاق الحروب بأن لا يصاب فقد ظنّ عجزا

وهل كفت باريس عن الدعوة إلى الحرب حتى تنكر عواقب الحرب ؟

فى باريس مئات من التماثيل لعظماء الرجال الذين كافحوا فى مختلف الميادين ، وفى كل خطوة يخطوها زوّار باريس أثرٌ ينطق بأن مدينة النور لا تعرف الحياة فى غير الصراع والصيال ، فما جَزَعُك يا باريس وأنت سيرت الحرب من شرائع الوجود ؟

إن قوة الألمان فيضٌ من قوتك يا باريس ، فأنت غرستِ الحقد فى صدورهم ، وأنت قهرتِهم على أن يتربصوا بك الدوائر عشرين سنة ليلقَوك بأفئدة موتورة لا يشفى غليلها غير الولوغ فى دماء الرجال

فبفضلك استطال الألمان يا باريس ولولا خشيتهم مما تملكين من عظمة وجَبَرُوت لما وصلوا فى التسلح إلى الحد الذى يسمح بأن يقهروك على إلقاء المقاليد

وانهزامُك يا باريس سيكون درساً لأبناء الجيل الجديد ، وبه يعرفون أن لا قيمة للاعتماد على التاريخ ، وأن لا قيمة للتمدح بالفضائل الإنسانية ، فما زال أبناء حوّاء يخضعون لفطرتهم القديمة يوم كانوا من جيوش الغريزة قبل أن يصيروا من رجال الوجدان

ألم أشهد العجائب فى الأعوام التى قضيتها فى السوربون ؟

كان شبان فرنسا فى ذلك العهد يرون الحرب من بقايا الوحشية ، ويَتواصَوْن بأن يكونوا أنصاراً للسلام مهما تقلبت الظروف ، ثم سمعتُ بعد أن فارقت باريس أن أقطاب فرنسا يختلفون حول فكرة التسلح وأن فيهم من يرى أن توصد جميع أموال الدولة للمنشآت العمرانية والمدنية

وذلك ذنبك يا باريس ، فأنت وثقت باعتدال الموازين قبل أن تستعد فطرة الإنسان الحيوانية للترحيب باعتدال الموازين

ولو كانت باريس غير باريس لعرف أهلها أن فى الدنيا خلائق تعيش بغرائز موروثة عن العهود التى سبقت التاريخ

إن الورد يعتصم بالشوك ، فكيف فات باريس أن تعتصم بالسلاح ؟

تلك هفوة سيكفّر عنها أبناء الجيل الجديد فى باريس يوم تنجلى الغُمّة بعد أن تضع الحرب أوزارها الثقال

ولكن متى ؟

إن انتظار السلام قد يطول !

* * *

فى أى المحامد والمحاسن والمناقب يفكر الرجل حين يجزع لبلواك يا باريس ؟

أيذكر أن مطابعك كانت تخرج نحو سبعين كتاباً فى اليوم الواحد ؟

أيذكر أن مكاتبك مرجع لجميع ما أبدعت العقول الإنسانية فى القديم والحديث ؟

أيذكر أنك صورة الإنسانية ، الصورة المجسّمة التى تمثّل ما تملك الإنسانية من آراء وأهواء ، وحقائق وأباطيل ؟

أيذكر أنك أرحب ميدان للصراع بين الحلم والجهل ، والشك واليقين ؟

أيذكر أن معاهدك العلمية والأدبية والفنية كانت النّبراس لأهل العقول والأفكار والأذواق فى أكثر بقاع الأرض ، وأن برلين نفسها لم تنجُ من الافتتان بسحرك القهار ؟

أيذكر أن النشوة الروحية لا تقع إلا لمن يفتح عينيه على نورك الوهّاج أول مرة ؟

وما أسعد من يراك يا باريس أول مرة قبل أن يألف مناظر الفردوس ! وهل تحقّ السلوة لمن يطول عهده بجمالك الفتّان ؟

قد ينسى الناس محامدك يا باريس ، إلا محمدةً واحدة ستبقى فى ذاكرة الخلود

فأعداؤك يا باريس لم يكونوا يجدون الأمن والعافية إلا فى ربوعك الضواحك ، وما استطاعت المطابع فى أى أرض أن تذيع الطعن فى فرنسا كما استطاعت مطابع باريس ؟ وما شُتِمتْ فرنسا فى أى بلد كما شُتِمتْ فى باريس !

لم تكن باريس وطناً خالصاً للفرنسيين ، وإنما كانت أوطاناً لطوائف من المفكرين والثائرين يفدون إليها من كل فج ويطعنون أهلها إن أرادوا بلا رقيب ولا حسيب

كانت باريس هى المنفَى الأمين لمن تلفظهم حكوماتهم من أصحاب المبادئ والمذاهب ، وكانت منتدياتها مجالاً للثائرين على موروث الأفكار والتقاليد من سائر أبناء الشعوب

كانت باريس هى الملعب الذى تراض فيه عضلات الأفكار على المرونة والعنف

كانت باريس حرباً على أهلها بفضل تلك الحرية ، ولكنها كانت تشعر بالأبوّة الرحيمة لكل من يلجأ إليها ، ولو كان من دعاة الهدم والتخريب

كانت باريس تعرف أن نشر المُعاد من الأفكار الموروثة لا يحتاج إلى حماية ، ففي مقدور كل مخلوق أن يذيع الآراء التقليدية حيث شاء ، وكذلك رأت باريس أن تكون حامية الفكر الحرّ من جميع القيود ، وفي رحابها ترعرعت المبادئ الجوامح التي صارت عدة أعدائها من الروس والألمان والطليان

فكيف صرت اليوم يا باريس ؟ وكيف تصيرين بعد اليوم ؟

أنا أعرف أن جراحك لن تندمل في يوم أو يومين ، واللحظة الواحدة من آلام الأحرار تُقدَّر بأعوام طوال ، فماذا تنوين وقد قهرك بنيُ الأعداء على اعتناق مبدأ الحقد الأسود ؟

في رحابك اليوم شيوخ وأطفال لا يفتحون عيونهم إلا على ظُلُمات من فوقها ظُلُمات ، فهل تختفي البشاشة الروحية والوجدانية من أدبك الرفيع ؟ وهل يَحُلّ النفاق محل الصراحة بعد أن دفعت الأثمان الغالية في عقوبة الترحيب بالرأي الصريح ؟

وهل تصيرين مثل موسكو وروما وبرلين في خضوع الأفكار والمذاهب للسلطة العسكرية ؟

أنا لا أخاف أن تموت باريس ، وإنما أخاف على باريس عادية الجحود

إن أبناء باريس حاولوا تخريبها مرات كثيرة بسبب العداوات الحزبية ، ولم يفلحوا ، فكيف يُفلح في تخريبها الأعداء ؟ وهل خُلقت باريس للموت ، وهي أسطعُ جذوات الخلود ؟

أحب أن أعرف ما الذي ستصير إليه باريس بعد اليوم ؟

أحب أن أعرف مصير الحرية الفكرية في هذا الوجود الموبوء بأنفاس المُرائين والمخادعين ؟

لم أتفجّع على باريس لقرابة أو جوار ، وإنما أتفجع على باريس لما بيننا وبينها من أنساب علمية وروحية ، فإليها يرجع الفضل في تخريج من عرفنا من كبار الأدباء والزعماء ، وتلك وشائج لا ينساها إلا من ابتلاه الله برذيلة الجحود

سيعضُّ قومٌ بنان الندم على الشماتة بمدينة النور ، يوم يعرفون أنْ لم يبق في الدنيا مكان تذاع فيه آراء الأحرار بلا تهيب ولا إشفاق بعد خمود باريس

لا بُدَّ للفكر من مدينة في مثل صراحة باريس وسماحة باريس ، فإلى أين يذهب الفكر وقد ضُرب الحرَج على باريس ؟

إن الفكر هو أثمن ما غنمت الإنسانية ، وبفضل الفكر الحرّ عرف الإنسان قيمة الوجود

لا بدّ للعالم المفكّر من باريس ولو رُفعت فوق ذراها راية الصليب المعقوف !

وهل أُطفئت أنوار أثينا الفكرية بعد أن دحرها الرومان ؟

وهل أُطفئت أنوار بغداد الفكرية بعد أن غلبها التتار المجرمون ؟

وهل استطاع الذين حاربوا القاهرة مئات السنين أن يحجبوا أنوارها عن الشرق ؟

المدُن الفكرية لا تموت ، وكيف يموت الفكر وهو أطول عمراً من الزمان ؟

* * *

أما بعد ، فهذه كلمة فاض بها قلبٌ يتوجع لأحزان باريس ، وطن أساتذتي الأماجد من أمثال مورنيه وتونلا وشامار وميشو وديبويه ومَرسيه وديمومبين ولالاند وماسينيون ، وطن المكاتب التي كنت أقضي فيها سهراتي بالمجان حين كان يعوزني المال لقضاء السهرات في مرابع اللهو والفُتون

هذه كلمة في التفجع لمصير المدينة التي قضيت فيها أطيب الأعوام من شبابي ، المدينة التي أوحت إلى قلمي كتاب « ذكريات باريس »

فإن ترجع الأيام بعد الذي مضى
بذي الأثْل صيفاً مثل صيفي ومَرْبعي
شددتُ بأعناق النوى بعد هذه
مرائرَ إن جاذبتها لم تقطّع

وسنلتقي يا باريس ولو بعد حين وقد طبّ الزمان لجراحك الداميات !

كيف الحال في بولْميش يا باريس ؟

وكيف الحال في الشانزليزيه ؟

وكيف الحال في فرساي وقد قيل فيه ما قيل ؟

وكيف الحال في دار المكتبة الأهلية ؟

وكيف حال الساهرين على شواطئ السين ، إن بقيَ للسمر مجالٌ على شواطئ السين ؟

وكيف حال اللاهين واللاعبين بين القصر الكبير والقصر الصغير في الطريق إلى ميدان الأنفليد ؟

وأين مواعيد الصبابة والوجد فى ساحاتك الفيحاء؟

وأين استقبال الناديات والرائحات فى الضحى والأصيل حول مخازن السماريتين ؟

وأين صبح الأحد فى متحف اللوفر وعصر الأحد فى حديقة النّبات ؟

وأين الصوت On ferme ! ليرجع العشاق إلى مخادعهم بعد العبث بأزهار البساتين ؟

وأين ؟ وأين ؟ وأين ؟

هى دنيا تذوقين من بأسائها بعض ما ذقتُ بعد فراقك الأليم

فيا مَرجع روحى بعد القاهرة وبغداد وسنتريس ، ويا صاحبة الفضل على أكثر ما نظمتُ من قصائد وما نشرتُ من مؤلفات ، ويا وطن الجنرال بونال الذى كانت داره مَلاذ عزيمتى ، ويا وطن الكوليج دى فرانس ومدرسة اللغات الشرقية والسوربون ، ويا وطن الصديق الحميم دى كومنين أقدم إليك أصدق التحيات وأنا واثق بنصيبك الأعظم من الخلود

زكى مبارك

حركات الإصلاح الإسلامية

٤ ـ أزمة إسلامية

للدكتور على حسن عبد القادر

أما حركة التجديد الإسلامية بمصر فقد صدرت عن عوامل وأسباب أخرى غير التى ذكرناها عن حركة الهند ، وإن كانت قد سلكت نفس الطريق ، وجاءت بنتائج متشابهة . ونحن لا نستطيع أن نجزم بأن الحركة الهندية كان لها أثر فى حركة الإصلاح المصرية . وإذا ما تصفحنا ما كتبوه من رسائل وكتب فإنا لا نجد بينهما أى ارتباط . ويظهر لنا واضحاً ما بينهما من فرق إذا عرفنا أن الروح التى سادت الحركة الهندية كانت « روحاً ثقافية » جاءت من التفكير والنظر الذى كان نتيجة اتصال الإسلام بالحضارة الأوربية ، وجهودهم الإصلاحية كانت تحت تأثير أوربى ، أما الناحية الدينية عندهم فكانت أمراً ثانوياً . والحركة المصرية كانت ، على الضد من هذا ، حركة دينية نتيجة تفكير ونظر دينى ، وسلكت طريق الإصلاح مستقلة عن أى نفوذ أجنبى ، فهى عندما ترفض أعمالاً أو بدعاً لا تردها على أساس أنها « معادية للتمدن والحضارة » بل لأنها « معادية للاسلام » مخالفة للقرآن والسنة الصحيحة ، كما أن البدع القائمة على الحديث كانت ترد على أساس من علوم النقد الإسلامى فى الجرح والتعديل . وهى تهتم من ناحية أخرى بخلقية الإنسان كمسلم وكشرقى ، وتكره التقليد الأعمى للأوربيين ، وتحذر من أضراره، حريصة جد الحرص على « الخلقية العربية الإسلامية »

وهنا فى مصر حيث يقوم منذ قرون الجامع الأزهر ، هذا المركز العالمى العظيم للعلوم الإسلامية ، والذى كان يسير على طريقة قديمة جامدة ، ترتبط حركة الإصلاح باسم الإمام محمد عبده تلميذ جمال الدين الأفغانى المتلىءُ به إعجاباً (١)

وقد كان محمد عبده من طلاب الأزهر ومن علماء الدين ، ثم صادفته أزمات داخلية طويلة حتى عرف جمال الدين أثناء مقامه بمصر فرسم له الطريق الذى سار عليه فيما بعد ، وسلكه وسط زعازع ومنازعات داخلية وخارجية انتهت به — مع الارتباط بالحركة العرابية — إلى النفى من مصر . وبعد ذلك وصل إلى مركز الإفتاء ونال اعترافاً عاماً ونفوذاً كبيراً ، وكان ولا يزال موضع عداوة قاسية من طبقة المتزمتين الجامدين

وإنه وإن كان فيما انتهى إليه قد صبغ الإصلاح بمصر بلون خاص ـ مع العلم بأنه كان ضد النفوذ الغربى ـ فإن الاسم الذى أطلقه عليه جولدزيهر بأنه « ذو ثقافة وهابية » أقرب الأسماء إليه وأولاها به . فمن الحق أن نقرر أن هذا العامل هو الذى يفسر لنا إصلاحات محمد عبده الدينية التى لا ارتباط بينها وبين الحركة الهندية . وأن ما أسماه جولدزيهر « ثقافة وهابية ليس معناه أن هذه الخطة قد جاءته مباشرة من الوهابيين ، وإنما غرضه التفريق بين حركة الثقافة فى الهند والحركة المصرية التى تسودها العوامل الدينية وترفض ما لا يقره الدين، الأمر الذى لا شك فى كونه أثراً جاء من العربية الخالصة

(١) راجع على الأخص عن الحركة المصرية : Goldziher, Die Richtungen dès islamischen Koranauslegung, S. 320 ff.
وراجع أيضا عن حياة محمد عبده وأعماله مقدمة : Mohammed Abdou, Rissalat al Tawhid, Exposé de la religion musulmane, trad. par B. Michel et Mostafa Abdel Razik (Paris 1925)

وكان لسان حال مدرسة الإمام محمد عبده مجلة المنار التى يحررها رشيد رضا السورى التى أخذت تنازع فى الإجماع المنعقد على المذاهب وتقليدها وتطالب بالاجتهاد على أساس القرآن والسنة . فقد رأت هذه المدرسة، مثل مدرسة الهند، أن الإسلام دين عالمى موافق لكل الشعوب وكل العصور، متفق مع الحضارة، ولكن على شرط ألا يأخذ بمذهب واحد من المذاهب ، بل يجب الرجوع إلى القرآن والسنة الصحيحة ، فهى ترى مثل الإمام الغزالى الذى صرح بهذه الفكرة منذ ثمانية قرون أن المفتاح لشرح الحالة التى طغت على الإسلام ، إنما هو فى جمود المذاهب الأربعة وانحصار العلم فيها وحدها ؛ تلك المذاهب المتخالفة ، وما فيها من تكرر عتيق ، ومماحكات غير نافعة ، وما تلاها من فقه المتأخرين ، ليست هى الإسلام والدين ، وإنما ذلك فى القرآن والسنة . وأغلب ما فى هذه المذاهب إنما يقوم على الاشتغال بفروع جزئية تتغير بتغير البلاد والأوقات وتخضع للتغيير تبعاً للعلاقات الاجتماعية ، ومثل هذا لا يصح أن يسلك به فى سلك دينى ثابت لكل زمن غير قابل للأخذ والرد . وكان من أثر هذه المذاهب الاختلافات التى حدثت فى الإسلام مما وقف ازدهاره . وهكذا رفضت هذه المدرسة أساس المذاهب الفقهية القائم على (اختلاف أمتى رحمة) ؛ وقالت : إن الأمر بالعكس . وطعنت فى صحة هذا الحديث الذى يخالف آيات كثيرة من القرآن. وقالت أيضاً: إن الوحدة والمرونة إنما تكون بالرجوع إلى القرآن والسنة وحدها حيث توافق الشريعة الحياة فى كل وقت وكل حال ، وبهذا يمكن الرجوع بالإسلام إلى حالة القوة والشباب(1)

كما رأت هذه المدرسة أن باب الاجتهاد لم يقفل بل إنه مفتوح على مصراعيه لبحث كل المسائل الطارئة . وليس الحكم فيها خاضعاً لحرفية النصوص ، بل يجب اعتبار مصلحة العالم الإسلامى أولاً وقبل كل شىء « وليس الشرع محصوراً فى جلود كتب الحنفية » . فإذا ما قام الفقه على هذين الأساسين : الاجتهاد والمصلحة ؛ فإنه يكون صالحاً لكل زمان ومكان ، وقابلاً لما تقضى به الضرورة من أمور تدعو إليها المصلحة وموافقة العصر . وحينئذ يمكن الرد على الذين يزعمون أن الفقه الإسلامى إنما هو لزمن خاص ومكان خاص ، وليس عاماً لكل الشعوب وفى كل الأوقات

ونظراً لأن الإمام محمد عبده كانت له شخصية دينية عميقة لأنه كان من مدرسة صوفية ، فإن الإصلاح الإسلامى بمصر كان — مخالفاً فى هذا الحركة الهندية — يمتاز بأساس من الإيمان والمحافظة وبروح حارة من التقوى . ولما كان يسود الاعتقاد بسمو الوحى ورفعته ، جاء الاقتناع القوى بأن العلم والدين عند الفهم الصحيح أخوان لا يختلفان ، وعلى هذا الأساس لم يرفض محمد عبده الأخذ مع الحرية الكاملة بالإصلاح العلمى

حقاً إنه لا يمكن أن يكتم أنه عند ما يحدث فى بعض الأحيان خلاف بين العقل والسنة فإنه يجب الأخذ بالأول ، بل إنه زيادة على هذا تجب مراعاة حالة الأمة والظروف ، فيقدم ذلك على النص الصريح . أما مماحكات الفقهاء فقد رفضت بشدة من محمد عبده ومدرسته ، ووضع بدلاً من ذلك القديم المتفتت جديد مأخوذ من الاجتهاد فى الأصول موافق للعلاقات الحاضرة . وفى هذا الطريق سارت هذه المدرسة — مثل الوهابية المعتمدة على ابن تيمية — فى رفض الخرافات والبدع ، ولكن فى الوقت نفسه — موافقة فى ذلك للغزالى — حاولت إدخال المبادئ الخلقية والأعمال القلبية فى الفقه ، مع اقتناع عميق بأن بساطة الإسلام الصحيح التى لم يمسها تغير الأيام تجعله قابلاً لكل حركات التقدم والتطور

ومن هنا نرى أن كلتا الحركتين الهندية والمصرية تنتهيان تقريباً عند غاية واحدة ، وهى أن الإسلام عند الرجوع به إلى شكله الأصلى ، وعند الأخذ بروحه ولبه ، وبعد أن ينقى من الأدران التى لصقت به ، ومن جمود العصور المتأخرة ، لا شك أنه يصبح موافقاً لطلبات الحياة العصرية . وإذا ما تأملنا قليلاً ، فإننا نجد أن الطريق الذى يمكن أن يسلكه الإصلاح الدينى من الحركتين سواء .

إلى هنا يقف الأستاذ هرتمان فى تأريخه للحركة الإصلاحية فى مصر والحكم عليها ولم يتناول بعد الحركة التى تلتها وشخصيتها القوية الجبارة وأسلوبها الحاسم الدقيق . وهو ما سنتناوله تذييلاً وتعليقاً على هذه الرسالة آخر الأمر .

علي حسني عبد القادر

(1) المنار ج ١٣ ص ٣٩ ، ٤١ و ج ١٤ ص ٨٧١ و ج ١٢ ص ٢٣٩ و ج ٥ ص ٦٧٤

إلى أين . . . ؟

للأســـتاذ محمود محمد شاكر

[تتمـــة]

أخذ صاحبي كأس الماء في يده ، وجعل يرشقها ببصره رشقاً حديداً يلمع لحاً تحت حواشي الليل ، فكنت أرى وهج مقلتيه يكاد يتطاير تطاير الشرار بينهما وبين الكأس . وأدام نظره طويلاً إلى الماء وهو يقر شيئاً بعد شيء ويسكن ، فكأني به كان يغمس نظراته الملتهبة في برد الماء ، ليبترد من وقدة العاطفة التي تضطرم في داخله . وبعد فترة عب من كأسه عب الظمآن استحر على كبده العطشى ، ثم فرغ فوجه إليّ ، وقد برق وجهه ، أو هكذا تخيلت ثم قال :

آه ... ! ما كان أبصر ذلك الأعرابي الظريف الذي عطش وضل عن الماء في بيدائه ، فلما رمى به السير فأفضى إلى بئر عميقة عادية قد بعد ماؤها ، أجهد أن ينزف بدلوه من بعض مائها حتى بلغ به وكاد يهلكه غؤور الماء ، وبعد لأى ما استطاع أن ينزح من مائها ما يرويه ، حتى إذا شرب وارتوى وأطفأ غلة الظمأ ، حمل تلك الدلو بين يديه ينظر إليها ويقلبها كأنها بنى من صغار بنيه يرقصه ويداعبه ويقول :

أي دلاة نهـل دلاتي ! ! قاتلتي وملؤها حيـاتي ! !
كأنها قلتٌ من القـلات

فانظر كيف يفرح الرجل بأديم جاس غليظ متغضن موات ! إنه يحبه ، ويحرص عليه ، ويرق له ، ويدلله دلالاً كأنه طفل بطفله وبرعاه . وما ذاك إلا أنها أداة يتخذها ليطفئ بها الغلة التي يؤرثها حر الظمأ ، لو هو فقدها في مجاز البيداء المجدبة الطامئة ، فقد معها القدرة على الحياة ، ومع كل ذلك فما هي إلا أديم أصم ، وأداة لا خير فيها إذا لم يكن كل الخير من قوة الساعد التي تمتد في رشاء يتطوح بين أرجاء البئر

ما أبلغه من أعرابي ، لولا نقل حديثه من الدلو إلى المرأة !

« قاتلتي وملؤها حيـاتي ! ! »

إنها المرأة يا سيدي هي وحدها التي تستطيع أن تكون القاتلة المحيية في وقت واحد . إن كل ما فيها هو حياة محبها ، وكل ما يكون منها — إذا أرادت — هو سبب من أسباب سلب هذه الحياة سلباً جباراً لا رحمة معه ولا هوادة فيه

إن المرأة الحبيبة هي النبع الصافي النمير الذي يرى المحب الصادق في كل قطرة منه حياة تتلألأ في روحه بالمنى ، فإذا أرسلت هذه الحبيبة في دمه قطرة واحدة من مائها — أي من حبها — أطفأت هذه الواحدة كل النيران الملتاعة التي تجفف بحرَّها ماء حياته . فإذا منعتْ عنه غيثها جعلتْ كل أفكاره وأحلامه وأمانيه تحتطب من الحياة ما تؤرِّث به تلك النار المبيدة التي لا تنفح نفحها على شيء إلا جعلته رماداً أغبر . ويومئذ تتحول الحياة فيه إلى خمود بليد ، أو إلى حماقة مجنونة كما يعترض الرماد للريح العاصف تطير به في كل وجه حتى يتفرق ...

ثم سكت صاحبي ... ، وخيِّل إليّ أن غمامة سوداء داجية من ذكرى أحزانه وآلامه ، قد أظلَّت عليه وتدانت أهدابها ، فهو يرفع يمينه إلى جبهته ، ثم يُمرها إلى ناصيته ، إلى يافوخه يضغط عليه . ويتنفس خلال ذلك أنفاساً جاهدة ينتزعها انتزاعاً من أقصى منابع الحياة في قرارة نفسه ... ما أقسى الذكرى إذا ضربت في القلب بفأسها تحطمُ وتدمِّر وتنقضُ بناء الأيام الماضية ! إن غبار هذا الهدم ليرتفع ويثور حتى يملأ الجو النفسي بما ينضجر ويختنق من ترابها ، وما أضعف الرجل إذا أخذت الذكرى تلح عليه إلحاح الكبرياء ، تتحدى الإنسانية والرجولة بأوهن الفكر ! الذكرى ... ! هذا شيء مخيف مفزع . إنها الشبح الذي يدب من بين القبور المهجورة التي تناثرت فيها أشلاء الموتى . إنها تقتل بالرعب ، فإذا أنت المحب ذكرى حبيبه ، فذاك شبح هائل يقتله بالرعب والحنين معاً

أقول لنفسي : أيها الصديق البائس ! لماذا لا تعرف طريقك إلى النسيان ؟ لماذا تقف في مقبرة أفكارك دائماً فترتاع وتتألم ؟ لماذا لا تحاول أن تسخر من الحياة التي سخرت منك ؟ لماذا أنت حائر أيها الصديق ؟ وبقيت أتداول الهاجس من أفكاري فيه ، حتى شُغلتُ به عنه . ثم جاءني صوته من بعيد كأنه كان يتكلم في بعض أحلامي تحت النوم :

إسمع ... ! إسمع يا صديق ! لقد كنت أفكِّر في بعض ما شغلني عن تمام حديثي قبلُ . لقد سألتني وسألت نفسك : أهكذا يضمحل الرَّجل ؟ أما إني لا أستطيعُ أن أضعَ لك اللغة وضعاً جديداً حتى أعبِّر لك عن كل خالجة من خوالج النفس

الانسانية حين تضطرب فتهتز فتطير هزاتها على مساقها ومجراها ، ثم تنشعب فتنتشر فتعمل عَمَل الجيش المحارب فى هدم صفوف العدو وتفريقها وبعثرة قواها المحتشدة للقاء احتشادَ البنيان المرصوص بعضه على بعض

نعم ... لن أستطيع ذلك ، ولكنى سأصف لك بعض الصفة واستشمر أنت كيف يعمل ذلك فى هدم الرجل ويسرع فى تدمير رجولته أمام أنوثة طاغية تتحدى وتأخذ سلاحها الذى تتحدى به من رجولة عواطف المحب الذى يَرى أن تماونَ القلبين بالحب ، وصبابة النفس إلى النفس الأخرى ، هو تمام رجولته وتمام أنوثتها

كان لقاؤهما تجديداً غريباً فى قديم نفسه ... لقد استطاعت هذه الساحرة الجميلة الفتانة — كما وصفت لك — أن تمحو ماضيه كله ، وأن تمزق صُحُفَ أيامه المهملة التى كان القَدَر يكتب فيها تاريخه الأول . مزقت هذه الساحرة تلك الصحف ، وألقت بها فى النار التى أشعلتها فى قلبه بالحب . بدأ يحيا بها وبسحرها حياة رائعة فاتنة من أحلام الحب ، وجعلت هى ... وجعلت هى ... آه ياصديق ! هذا كثير كثير ، إن ذكرى ذلك كله تؤلمنى ... إنها تعذبنى ... إنها تخِز قلبى بمثل السنان الحديد يقع وخزاً متتابعاً شديداً يتفجر فى نزعه بالدم ... كيف أستطيع أن أقول لك الآن ما الذى كانت هى تفعل ! وماذا أقول لك ؟ آه ... إن أنوثتها ، بل رقتها ، بل حنانها ، بل رحمتها ، بل إخلاصها ، بل حبها ... كيف يكون هذا ؟ بل ذلك الصوت المنغم الروى الممتلىء صوت الحنين المتعذب ... صوت القدر الآتى من بعيد بأفراح السعادة ... صوتها ... صوتها ... ذلك الصوت المعبر عن نفسها بألحان تتجاوب وتسرى وتموج فى كل غيب من غيوب نفسه المتراحبة ... !

إن كل هـذه العواطف التى يرسلها إليه صوتها وهى تتكلم كانت تصبُّ فيه عبابها ، حتى يجد الأمواج النفسية تتقاذفه فى فرح بعد فرح ، ومن سعادة إلى سعادة ، ومن حلم إلى حلم ؛ كأنه ماض إلى جنة الخلد فى زورق من اللذات الطاهرة الجميلة ، تحف به الملائكة تغنى لقلبه أناشيد المجد والخلود ... ! إنه سوف يسمو بروحه إلى ذلك الجو الذى يعطّره النبل ، ويفيئه الحب ، وينديه الحنان ، وتضيئه هى بسنتها المشرقة ، وتسبح فيه النجوى أنغاماً حرة تهيم وتتعانق

جعلت أيامه معها تتهدل ثمارها الناضجة المغرية ، وجعل يقتطف منها حيث أراد ، وجعلت هى تغذوه كل يوم غذاء جديداً هنيئاً يملأ روحه قوة وشباباً وعزماً . وجعل إحساسه بسحرها وفتنتها يغلو به فى إيمانه بعبقرية أنوثتها الكاملة . أجل ...، إنها أرسلت فى دمه الحيـاة الجديدة ، الحياة التى تجدد فكره فى أشياء الدنيا ، وتستفزه إلى فرض سلطانه على هذه الأشياء . وكانت هى تنشىء لعينيه فى كل يوم بل فى كل ساعة دنيا مائجة من فنها البليغ الذى يعبر عن ضميره تعبيراً بليغاً كبلاغة أنوثتها ، فانبثقت فى عينيه وفى قلبه ينابيع متفجرة من الأحلام الرقيقة والأمانى الطائرة ، تلك الأمانى التى تتنهد دائماً على قلبه بأنفاس الفجر ...

امتلأت عيناه الحائرتان بأحلام الشباب ، وانبعثت القوة المتلهبة بالرغبة ، فهو ينظر ثم يندفع إلى أمانيه يريد أن يختطف حظه من السعادة السانحة سنوح الصيد المستطرد ، قبل أن تسبقه إليها أنياب الشقاء والألم والبؤس فتفترس منها وتنهش . إنه يريد أن يظفر بسعادته ليتمتع بالحياة بعض المتاع ، ولكن ياصديق ...، إن هذه الغريزةُ المتحكمة فى الإنسان وفى أعماله — غريزة التمتع بالحياة — هى التى تذهب بالإنسان فى القدر مذهباً بعيداً ... إنها هى التى تجمل الحياة لعينى كل حى ، ولكنها هى هى نفسها التى تعمى المحب فلا يبصر تلك الهوة السحيقة التى فغرت له أشداقها وأحدت أنيابها ، فلا يزال — إلا أن يعصم الله — يتهاوى فيها ما اندفع به إليها هواه

ولـكن كيف كان يملك صاحبى إرادته فى البصر ؟ إنها كانت تعمل أبداً — وهو لا يستطيع أن يدرك — على أن تبقى حبيبة أحلامه ولو قتلته . نعم إن بعض ضحكها كان يصفق بدلالها كأن أمواج شبابها تتلاطم فيه وتزخر . شبابها ... !! شباب امرأة جميلة متكبرة معجبة ، شباب أنثى تحب ، وتريد أن تبقى أبداً محبوبة يهيم فى أوديتها المسحورة من يحبها . ومع ذلك فقد كان يجد لـما يلقاه منها فرحاً فى نفسه ، ونشوة فى روحه ، وعربدة فى دمه ، كان كالسكران بحبها لا يستطيع شيئاً ولا يملك إلا أن يخضع لذلك السلطان المرح الظافر المبتسم ، السلطان العنيف الذى يقبض على روح المحب بحنان طاغ من روح من يحب

وعلى ذلك فإن هذا الرجل المسكين — على عنفه وصلابته وفحولته — لم يجد بدًّا من أن يسلم لها قياد عواطفه التى تصبو صبواتها إلى أناملها الرخصة الساحرة . كيف يقاوم الرجل الصب

— مهما استصعب والتوى — امرأة مقدسة يحبها ، فهو يتصبب بروحه فى روحها ؟ استسلم لها ، ولكنه كان يشعر بعد هذا الاستسلام أن ليس فى هذه الدنيا شىء يستطيع أن يقهر إرادته ، أو أن يحول بينه وبين ما يرى إليه من أغراضه وإن بعدت . كان معنى خضوعه لها أنه يستطيع إذن أن يخضع الأشياء كلها لسلطانها ... ما أعجب هذا الحب ! أرأيت إلى ذلك الضرس الفولاذى الصليب المتكبر من الجبل الإنسانى فى صاحبى ذاك ... ؟ لقد كان يُرَى وهو يذل لهذه الساحرة أيامه ولياليه خاشعاً مستكيناً كأنه يهودى منبوذ فقير فى غربة موحشة !

ولكن لا تخطئ معنى الذل فى فحوى حديثى ، اعرفه صورة أخرى من الكبرياء المأسورة فى سجن امرأة محبوبة . إن إحساسه بحبه لها كان ضروباً من فن الروح العاشقة . لم يكن يراها امرأة مجردة يحبها بحرارة القلب الملتهب بالرغبة أو بالحب . كلا ، كلا ، لقد كان يجدها أحياناً فى أوهام عواطفه ومدّها أمّا ، فهو يريد من أمومتها المحبوبة أن تمهّد له فى قلبها تلك العاطفة الوثيرة اللينة من الحنو والعطف . وهو يراها مرة أختاً يلتمس فى مس يديها ، وفى نبرات صوتها ، تلك العاطفة الساكنة ذات الأفياء والظلال ، عاطفة الأخت التى تضحى فى سبيل أخيها المنكوب ، ثم يرق بها إحساسه فينظرها أخاً مخلصاً يشد أزره إذا انطبقت عليه شجم العيش ومتالف الحياة . ثم إذا هى تارة أخرى روح من الأبوة المسددة ، الحازمة المصممة البليغة ، لا تزال تجد الرجل مهما أناف به العمر وشمخ ذلك الطفل العابس الغرير الطياش

وهى مع ذلك كله الصديق الذى يحامى عنه إذا تمادت عليه الدنيا بأسرها ، الصديق الذى تبقى صداقته تطوف عليه تحرسه وترعاه . أتدرى بعد إلى أين تنتهى به هذه الألوان المختلفة من إحساسه بها ؟ لقد تنتهى فى بعض ساعاته معها أن يراها أستاذه ، فهو كأنما يجلس بين يديها ليأخذ عنها روائع الحكمة ، ويسألها عن سر الأبدية المحجب بالغيب ، ويلقى عندها كل أفكاره المعقدة فى الحياة ، يلتمس عند حكمتها الخالدة حل ما تعقد ، وأن تمنح أفكاره ذلك الهدوء الفلسفى الذى تسبغه الحكمة العالية على سدنتها وحفاظها

ثم سكن صاحبى وغشيته فترة الحديث إذا تطاول به وامتد ولكنه ما لبث أن أقبل علىّ يندفع :

أنظر ... أنظر الآن كيف يضمحل الرجل . هذا هو فى مد عواطفه وهى تفور وتتثوّر بأمواجها فى الحب المنيف المتلاطم ، ثم إذا هى تطير عن أحلامه وتنفر من مجثمها السحرى ، وإذا هو منفرد لا يدرى كيف كان هذا ؟ ولِمَ ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ...؟

إنها ذهبت وتركت الدنيا التى أنشأتها له مشرقةً زاهيةً ، ناضرة فإذا هى تطفأ وتخبو وتذبل . إن قوة رجولته قد ذهبت تطلبها عند قبور الذكرى ، فكيف لا يضمحلُ الرجل ؟ كيف لا يضمحلُ ؟!

محمود محمد شاكر

كنت على وشك أن أتزوج

للأستاذ توفيق الحكيم

[فى هذا الأسبوع أخرج صديقنا الأستاذ توفيق الحكيم كتابه (حمار الحكيم) . وهو كتاب قصصى طريف ، أخذ اسمه من جحش رضيع اشتراه وأنزله معه فندق (....) ، ثم أدار فيه الحديث على اتفاقه مع شركة سينمائية على أن يضع لها حوار قصة مصرية . ثم شقق الحديث وشعبه فتناول الأدب والفن والمرأة والزواج بأسلوبه الفكه الطلى . وفيما يلى فصل قيم من هذا الكتاب يصور قطعة جميلة من حياة الكاتب]

رفع صاحبى رأسه والتفت إلىّ فجأة قائلاً :

— ألم يخطر ببالك أن تتزوج ؟

فقلت وأنا أحاول التذكر :

— نعم ، كنت موشكاً على الزواج منذ عشر سنوات ... لكن ...

ثم كررت بفكرى راجعاً إلى ذلك العهد وابتسمت ، فقد مرت برأسى صورة ما حدث وما ثنى عزمى عن المضى فى ذلك الأمر

كنت ذات عصر راكباً عربة يجرها حصانان ، وإلى جانبى أحد المهتمين بشئونى ، فرأينا السائق يهوى بسوطه على أحد الجوادين ، فمال من الألم على شريكه كأنه يشكو إليه ، والتقى رأسا الجوادين كأنهما يتساران . فجعلنا نتحدث فى ذلك ونقول : إن مركبة الحياة كذلك لا يهوّن من أوجاعها غير أن يربط إليها شريكان يشدان عجلاتها ويشجع أحدهما الآخر كلما سلط عليه القدر سوطاً من سياطه . ثم قلنا : من يدرى ؟ لعل هذا سر ذلك الخطر الذى نراه فى بعض المدن على من يستعمل مركبة ذات جواد واحد . ثم مضينا فى الاستطراد حتى قلنا : ولماذا لا يسرى الحظر على مركبة الحياة ؟ وعند ذلك اتجه الكلام إلى ، وصارحنى من معى بأن مركبة حياتى لا ينبغى بعد اليوم أن أجرها بمفردى . فإنها قد تحمل فوق ما أطيق ، وأنا رجل غريب الأطوار قد أسير بها سيراً غير مألوف فأتخبط بها فى طرقات غير ممهدة لا أحفل بسوط سائق . بل من يدرى لعلى جمحت مرة فأسقطت سائقى فى الأوحال ، وجعلت أنطلق منفرداً بمركبة بلا نور ، أركض بها على غير هدى حتى أرتطم فى جدار ... وانتهى الأمر بصياح ذلك المهتم بشأنى :

— لا بد من زواجك

فقلت له :

— فى الحالة الحاضرة ... وقتى ضيق ...

فقاطعنى صائحاً :

— اترك لى المسألة ...

ولم يمض بعض شهر حتى وجدت ذلك الشخص الكريم قد خلا بى ووضع فى يدى صورة فتوغرافية لفتاة طريفة وقال لى :

— تعجبك ؟

فتأملت الصورة ملياً ثم قلت :

— من أى وجه ؟

فصاح بى :

— اعمل معروف لا داعى للفلسفة . إن كان شكلها مناسب ؟

— مناسب ...

— انتهينا ...

ثم مد يده إلىّ وقال :

— وصورتك بسرعة . آخر صورة لك

— الصورة الوحيدة الموجودة عندى هى صورة جواز السفر

— ما تنفعش ؟ قم بنا نعمل لك صورة « جواز » فقط ؟

وسحبنى من يدى ، وذهب بى إلى محل « مصور فتوغرافى » معروف . فوضعنى ذلك المصور أمام لوحة من قماش تمثل ستارة سوداء ، وأراد أن ينزع من يدى العصا ، ليضع هذه اليد فوق « درابزين » مزيف قد أتى به ، فأبيت ذلك عليه ، فرد على عصاى ، ونظر من معى إلى وقفتى ، فأقره ، فصاح فى المصور :

— هو واقف على إيه ؟

فقال المصور :

— على سلم

فصاح به :

— وإيه مناسبة السلم والدرابزين ! اجعل وقفته فى جنينة

وحط الورد حواليه ، وارفع الستارة المحزنة من جنبه وانصب بدلها خميلة ياسمين أو تكعيبة عنب ! بالاختصار مناظر مفرحة ...

ثم مال على المصور ، فأسر في أذنه كلاماً

فتهلل وجه المصور وقال :

— فهمت الطلب

ثم أسرع فأحضر ستائر حمراء ومناظر خضراء وأصص أزهار ورياحين وهو يقول :

— إن شاء الله أطلعه يحاكى البدر فى سماه !

فأردت أن أظهر عجبي لهذه المعجزة إذا صحت ، فأسكتني وأوقفني بين المناظر الرائعة والخضرة الزاهرة ... ودخل هو فى شيء يشبه « البطانية » السوداء يغطى جهاز تصويره ، ولبث فيه لحظة ثم خرج يصيح :

— واحد ... إثنين ... ثلاثة ... مبروك !

فتركت موقفي وأقبلت على المصور أوصيه :

— الصورة تكون طبيعية . إياك تعمل « رتوش » !

فما شعرت إلا والمتولى شأنى قد انتزعنى انتزاعاً من بين يديه ودفعنى بعيداً ، وأقبل على المصور يقول له :

— إياك أن تسمع كلامه !

ثم التفت إليّ قائلاً :

— حد فى الدنيا يقول للمصوراتى ما يعملش « رتوش » ؟ خصوصاً لحضرتك !

فقلت :

— على كل حال لا بد من كونى أطلع على « البروفة » قبل كل شيء

فقال المصور : إن تجارب الصورة يمكن الاطلاع عليها فى صباح اليوم التالى . فغادرناه على أن نعود إليه فى الغد . ومضى النهار ، وجاء الغد ، فانسللت بمفردى إلى حانوت المصور أطلع خفية على تجارب الصورة . فعرضها عليّ ، فتأملت وجهى فيها ، فلحظت أن شاربيّ غير متساويين فى الطول ، وأن شارباً أقصر من شارب ، فتباحثنا فى علاج ذلك ، وقلت له : إن « الرتوش » الوحيدة التى آذن بها هى أن يمد ريشته إلى الشارب القصير فيطيله حتى يساوى أخاه . وانصرفت وانتصف النهار ، وقابلت بعد ذلك المهتم بشأنى ، فقصصت عليه ما حدث من أمر الشارب ، فما راعنى إلا قوله إنه مر هو الآخر بحانوت المصور عقب انصرافى ، فلما علم بمسألة الشوارب ، أمر المصور أن يزيلها كلها وكفى الله المؤمنين القتال . فما إن سمعت منه ذلك حتى صحت فى وجهه :

— يزيلها كلها !

— إيه المانع ؟

أنا بشوارب تعملونى من غير شوارب! هذا العمل اسمه تزوير

— يعنى لا سمح الله قمنا زورنا فى كمبيالة !

— هو التزوير لا بد أن يكون فى كمبيالات

كان غرض حضرتك أن أهل العروسة يقولوا مقدمين لنا عريس « بشنب ودقن » !

— نقوم نلجأ للغش !

— وأنت فاهم أن صورة العروسة خالية من الغش ؟

— شيء عجيب !

— مؤكد شيء مفهوم مقدماً . وفى المستقبل يتضح لك أن ما عملناه أقل مما عملوه بمراحل ، اطمئن !

فقلت من فورى :

— الحمد لله اطمأنيت . إذا كان مجرد « الشكل » وضمناه على هذا الأساس ، يبقى « الموضوع » ...

فقاطعنى :

— لا ... « الموضوع » مضمون أربعة وعشرين قيراط . ثروتها معروفة وتحرياتنا صحيحة ، وأنت حالتك المالية واضحة ...

— دا كل قصدكم من « الموضوع » ؟

— طبعاً . فيه شيء غيره ؟

فلم أطق صبراً ، فقمت دون أن أجشم نفسى مشقة الجواب وذهبت ، وقد ذهبت عنى فكرة الزواج إلى اليوم . ولم يعد شبحها يظهر إلا مقترناً بذكرى هذا الحوار بنصه وألفاظه كما سمعتها ، فكانت ذكراه تقصينى من فورى عن المضى فى التفكير . فهذه الشركة النبيلة بين روحين تعاهدا على السير جنباً إلى جنب فى طريق الحياة الشاقة الطويلة ، ما زالت تقام فى أغلب الأحيان على هذا النحو المخجل ، وإذا صلحت هذه الطريقة لكثير من الناس فهل تصلح لشخص مثلى قد تتأثر حياته الفكرية وإنتاجه الذهنى

إلى حد كبير بشخصية الشريك . لذلك آثرت السلامة وأحجمت عن المغامرة ، خشية الوقوع في غلطة تفسد علي الحياة كلها

ورجعت إلى وحدتي ... تلك الوحدة الباردة التي تحيط بي من كل جانب فما أنا في الحقيقة دائماً سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد ، وضعت داخله يد المصادفة إناء يغلي ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الأفكار التي تخرج من نافذتي إلى حيث تصل أحياناً إلى جموع الناس . فإذا دخلت امرأة هذا الكوخ فمن يضمن لي ما سوف تلقيه في هذا الإناء وما يتصاعد من جوفه بعد ذلك ! ...

أنفقت حياتي متنقلاً ، نائماً ليس لي مكان معروف ولا عنوان دائم . فما تركت فندقاً لم أنزله ، ولا نزلاً لم أهبطه . حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال واستنكفت أن أعيش هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة . . . فأردت أن أجرب الحياة المستقرة في مسكن ثابت اخترته في بقعة جميلة من بقاع القاهرة ، يشرف على النيل ، وترى من نوافذه القلعة والأهرام وعنيت بأثاثه ، وأعددت فيه مكتباً أنيقاً وخزائن للكتب ، واقتنيت سيارة ، وأقمت بمفردي وحولي خادم وطاه وسائق ...

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عاماً . فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون البقية الباقية من عقلي ، فالخادم النوبي جعل يكسر «اسطواناتي» الثمينة ؛ وتحريت أمره فعلمت أنه يتربص بي حتى أخرج في الصباح ، فيدير «الجراموفون» ويضع ما يقع في يده من أعمال «بيتهوفن» و «موزار» ، ولا يحلو له تنظيف «الباركيه» وطلاؤه إلا على هذه الأنغام

أما الطاهي فقد كان يبدي الابتكار في ألوانه أول الأمر ، ثم قصر وتراخى حتى صار الطعام ضرباً من (الروتين) لا طعم له . فكنت أحياناً أترك المنزل بما أعد لي فيه وأذهب إلى مطاعم المدينة. ولقد كان للخدم دائماً طعام غير طعامي ، هو في أكثر الأحيان ألذ وأمتع . ولطالما أمرت الطاهي أن يحضر لي مما في قدورهم ويحمل كل هذه الألوان التي نسقها تنسيقاً ظاهراً دون أن يضع فيها روحه وقلبه ...

وليس هذا كل شيء . فقد علمت أن الطاهي يعد على حسابي قدراً كبيراً من الطعام يقدمه بالأجر إلى بوابي الجيران ؛ وأن الخادم يدعو جميع زملائه النوبيين كل عصر عقب انصرافي إلى تناول الشاي

ولم يدهشني ذلك فإن نفقاتي بمفردي كانت دون أن أدري نفقات أسرة مكونة من عشرة أعضاء، وما نبهني إلى ذلك إلا ضيف عابر . على أن كل هذا لم يعنني كثيراً . إنما الذي أثارني حقاً هو مسمار صغير وجدته يوماً في لون من ألوان الطعام ، كدت أزدرده ... هنالك لم أطق صبراً . وعلمت أن الخدم بلا رقابة هم خطر من الأخطار العامة ... وما ملكت نفسي عن الصياح فيهم يوماً (والله لأتزوج لكم وأمري إلى الله)

أما السائق فلا يريد أن يصغي إلى رجائي كلما طلبت إليه ألا يسرع . فأنا أبغض السرعة. إنها تمنعني من التفكير، ولطالما أكدت له أني لست متعجلاً شيئاً . ولا شيء في الوجود يستعجلني، فأنا عدو الزمن والوقت ، ولم أحمل ساعة قط ، فالوقت عندي ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا ... ولكنه ينطلق بي رغم ذلك ، كأنما يريد أن يطرحني في أسرع وقت ، ليخلص مني وينصرف إلى شأنه . فكنت أتركه أحياناً يقف منتظراً في جانب الطريق وأسير مفكراً حراً حيث أشاء . ثم أدرك أخيراً أني لا أحب السهر وأني شديد الكسل وأني أكتفي بعبارة أقولها له كل عصر : « اطلع جهة فيها هواء نقي » « فين ؟ » (أي جهة تختارها) ، فيمضي بي حيث يريد هو دون أن أعترض ويقف بي أحياناً حيث يشاء ويقدر أن المناظر جميلة والهواء منعش فلا أتكلم ، فإن فكري منصرف دائماً عنه ، ما دام لا يسرع بي ولا يقول لي : « تفضل » . إلى أن يرى أن الأوان قد آن للتحرك فيعودني إلى حيث أتناول الشاي أو العشاء في الأماكن المعتادة . فإذا أمرته أن يذهب بي إلى السينما ... فقد عرف ألا يسألني أيها . بل يمضي بي طائفاً على جميع الدور ، فيقف أمام كل باب من أبوابها لحظة ، فإذا نزلت فقد انتهت مهمته . وإذا لم أنزل فإنه يتحرك إلى غيرها ... وإذا مر بجميعها فلم أغادر السيارة فإنه يعود بي من تلقاء نفسه إلى المنزل ويقول لي : « تفضل » . فأنزل في صمت ، وقد شعر بقدر هذه السلطة الواسعة في يده فاستغلها آخر الأمر استغلال الطغاة لحرية الشعب . فكان

إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكراً أو يخلص إلى شأن من شؤونه طاف بتلك الأماكن طوافاً سريعاً لا يكفى لإيقاظى من تأملاتى أو إخراجى من ترددى ، ثم ردنى إلى منزلى ، ولما تدق التاسعة قائلاً : « تفضل » فأنزل دون أن أنتبه لما حدث . وفطنت ذات ليلة إلى إرادته . وكانت بى رغبة فى السهر . فما تمالكت أن ثرت لحريتى المسلوبة وصحت : (أنت غرضك تنومنى المغرب ! قسماً بالله العظيم ما أنا نازل)

هكذا كان شأنى فى المسكن الخاص بين أولئك الخدم . وقد لبثت على هـذه الحال زمناً اختمرت فيه داخل نفسى جراثيم الثورة الكبرى على هذا النظام فبيت النية ذات ليلة على خلع نير هؤلاء الذين يسمون أنفسهم خدماً لى . فلما كان الصباح أعددت حقائبى ، واستدعيت البواب وطلبت إليه أن يبحث عمن يحل محلى فى هـذا المسكن بأثاثه ورياشه . فأتى إلى برجل انجليزى وزوجته فتركت فى عهدتهما كل شىء حتى كتبى ، وغادرت ما فى البيت من أشياء خصوصية ومن مؤونة حتى زجاجات المياه المعدنية وعلب الجبن والمربة والزبد والبن والشاى والفطائر ، وطردت خدمى ، واستغنيت عن سيارتى ، وانطلقت بمفردى حراً من جديد ، أتنقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع ، وأقفز فى عربات الترام وسيارات الأوتوبيس ، وأختلط بالناس ، وأمتزج بالجماهير . فأحسست كأن الدم يعود حاراً إلى عروقى . وأن قدمى قد فرحتا بلمس الأرض من جديد، وأن فكرى قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه ، مع السير الحر بالأقدام فى كل مكان ، وملاحظتى الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلاً خلف الزجاج ، وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة فأحادثه وأباسطه لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة ، وأصغى إلى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كناس الجهة . فأشترك معهما فى الحديث والسمر ، ورأيت الكناس يسامر البائع طمعاً فى كوز ، والبائع لاه عنه لا تخطر له المزومة على بال « فإن الشغل شغل » فى عرف التجار ، فشريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحداً واستبقيت لنفسى الآخر . فدعا لى الكناس الدعوات الصادقات ، وجعل يأكل ويقص على مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة ...

عرض هـذا الشريط كله فى رأسى عند ما سألنى المخرج ذلك السؤال . ولم أجبه بشىء غير تلك الابتسامة التى أثارتها هذه الذكريات ...

توفيق الحكيم

٣ ـ إلى أرض النبوة !

[وصف وتأريخ لرحلة الوفد السوري إلى الحجاز ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري بالسيارات]

للأستاذ علي الطنطاوي

تركنا القراء في « المخفر السعودي » على الحدود . وأشهد أني لم أذق طعم الأنس والاطمئنان مذ فارقت دمشق إلا في هذا المخفر ، ومهما نسيت من المشاهد ، وأضعت من الذكريات ، فلن أنسى تلك الساعة ، ولن تضيع من نفسي ذكراها ، وإنني لأتخيلها الآن ، وقد مر على تلك الزيارة خمس سنين ، ولم يبق في يدي منها إلا ماعلق بذهني ... أتخيل تلك الخيمة الشَّعرية الشَّمرية ، الجاثمة على ذلك التل العالي ، تطل على التلال التي لا يحصيها عد ، وقد اتكأت فيها على جنبي ، ونظرت إلى أسفل مني فرأيت السلوك الشائكة ، فعجبت منها سلكة لا يعبأ بها تفرق الأخ عن أخيه — وتجعل الشعب شعبين — ثم مددت بصري حتى ضل في ثنايا السراب المتألق في وهج الظهيرة ؛ ثم بلغ « دمشق » ، دار الأحبة ومثوى الأماني ، فهزني الشوق إليها والفخر بها ، والأسى عليها لما أصابها ... ثم رجعت البصر إلى البادية من حولي ، فسرَت في روحي روحها ، فشعرت كأن قد صهرتني شمسها ، فغدوت كأولئك الذين خرجوا منها جنًّا في النهار ، ورهباناً في الليل ، وموتاً للظالمين والمبطلين ، وحياة للشعوب ورحمة للناس ... وتمنيت لو كان اليوم إلى اليرموك أو القادسية طريق ، حتى أسلكه كما سلكه أجدادي الأمجاد ... وهيهات أن يكون للشباب الذي أضاع روح الصحراء إلى مثلها طريق ...

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليجيُّ كل مسلم أسـد

* * *

وأكلنا من طعام الجند وهو الزبد والرز والتمر ، وشربنا من ألبان النياق وما ألذه من شراب ... وتبادلنا أطيب الحديث فكان بشرهم وحديثهم قرى حلواً كتمرهم ، سائغاً كلبنهم . ثم سألونا عن الطريق الذي نسلكه فأشرنا إلى الدليل ؛ فحدثوه ، فوجدوه أجهل بالبادية من (الكناني) وأصحابه بلغة العرب ، ووجدوه يضرب بنا على غير هدى ويسير على عشى . فأتمُّوا صنيعهم معنا ، فبعثوا واحداً منهم يصحبنا إلى (القريات) يرشدنا ويهدينا ، وكان هذا الواحد فتى حلواً جميلاً ولكنه على حلاوته وجماله أمضى من السيف الباتر ، وكان اسمه (سلامة) فتفاءلنا به خيراً . وكان صلى الله عليه وسلم يتفاءل ، وقلت : رافقتنا السلامة إن شاء الله ، والحاج غراب صامت لا ينطق ...

وودعنا القوم الكرام وسرنا نخرق صدر البادية المهولة وأرواحنا معلقة بيد سلامة ، وسلامة يشير إلى السائق ويلقي عليه أوامره : يمين . شمال . اصعد التل . تجنب الرملة . والسائق يسمع ويطيع ، والسيارات تتغلغل بين هذه التلال ، ولبثنا على ذلك إلى العصر ، عصر اليوم الثاني من أيام الرحلة ، فرأينا رملة بيضاء فسيحة لها منظر البحر في سمته وتموجه واستوائه ، تملأ العين جمالاً والقلب من خوف سلوكها فزعاً ، يلوح من ورائها سواد قليل كأنه النخيل أو خيال البنيان . فقال سلامة سلّمه الله : « هذه هي القريات »

والرمال التي رأيناها في البادية على نوعين : رمال منبسطة بيضاء دقيقة كالغبار ، لاطية بالأرض ، يتخللها نبات من نبات الصحراء (وسأصف فيما يأتي من الحديث أنواعاً منها خبرناها) ورمال حمراء حباتها أكبر ، وامتدادها أكثر ، وهي تلال يأخذ بعضها بأعقاب بعض ، تشبهها العين بأمواج البحر ، لو كانت تجمد أمواج البحر ، وإذا أنت تأملتها وجدتها في حركة دائمة لا تستقر حباتها ، وبذلك ينتقل التل العظيم من مكان إلى مكان في الشهر مرة أو الشهرين ، ولقد رأينا في عودتنا مناطق كانت مهلة ما فيها حبة رمل ، فصارت بعدنا آكاما من الرمال

وهذه الرمال آفة السيارة ، وعلتها التي لا دواء لها ، فإنها لينها وتهافتها لا تثبت تحت دواليب السيارة ، فتغوص فيها كما تغوص في الماء ، وتلبث فيها كأنما دفنت وهي في الحياة

* * *

ولقد لقينا من هذه الرملة عناء تقل في وصفه مبالغات الشعراء ... غرقت فيها السيارات ، وما لها لا تغرق وقد قلت لك إنها رملة كالبحر ، أفتمشي سيارة على وجه البحر ؟ ولقد لبثنا إلى الليل نزيح الرمل من حول السيارة ، ونرفعها رفعاً ، ثم ندفعها بسواعدنا دفعاً ، ثم نجرها بالحبال ، حتى إذا قلنا سارت عادت فغاصت ، فلم نقطع الرملة حتى تقطعت أعمارنا ، ولم نخرج

منها حتى شهدنا أنه لا إله إلا الله !

* * *

وقريات الملح قرى ست متقاربة أكبرها قرية (كاف) ، ولكنها لا تحوى على نصف سكان (حلبون) أخس قرى الشام ولا تبلغها كبراً واتساعاً ، وهى فى غور من الأرض ، وكان أول ما استقبلنا منها الحصن ، وهو حصن كبير من الحجر الأبيض المسنون ، علمت أن الأمير نواف بن النورى بن الشعلان هو الذى بناه أيام تسلطه على تلك الديار ، منذ خمس وعشرين سنة ، ولم أجد من استزيده من خبره ... والقريات اليوم إمارة ، وهى مقر الأمير . ومما رأينا فى الحكومة السعودية أنهم يسمون كل من يلى مدنية مهما صغرت أميراً ، لا فرق فى ذلك بين أمير القريات ، هذه ... وبين أمير المدينة المنورة ...

وكان الأمير يومئذ غائباً فى مكة يشهد الموسم ، يقوم مقامه ابن أخ له ، وهذه العادة فاشية فى الحجاز ، إذا غاب الأمير أناب عنه ولداً له أو قريباً ، وكان نائب الأمير فى قرية أخرى من القرى الست ، فلم نلقه ، ولكننا لم نعدم من يستقبلنا ويكرمنا ، وغاية الإكرام (كما رأينا) أن ندخل القصر ، وتوقد النار فى زاوية البيت الذى جلسنا فيه ، ويشعل فيها الغضا هذا الذى يضرب بجره المثل والذى ذكره الشعراء فأكثروا ، وكنوا به عن نجد ، مهوى الأفئدة منهم ، وقد رأيته مراراً فوجدته كثيراً فى البادية وهو كالشمس غير أنه أجمل شكلا وأدق ورقاً ، وهو أشد شجر رأيناه فى البادية اخضراراً ، أما جمره فكالفحم الحجرى ولا مبالغة ، وقد عرفه الشاعر حين زعم أنهم (شبوه بين جوانحه وضلوعه) ، أما نحن فعرفناه فى هذا البيت حين أشعلوه وزادوا فى إضرامه حتى بلغ لهيبه السقف ، ثم قربونا منه وأجلسونا إلى جانبه ، فلما (تقهوينا) ونلنا حظنا من الإكرام البالغ ... سألونا سيارة تأتى بالأمير ، ودعينا إلى دار أخلوها لنا ، وكانت دار مفتش الحدود (عبد الرحمن بن زيد) وهى أكبر دار فى القريات وأجملها إلا أنها خالية لا شىء فيها ، ففرشنا فيها ما كنا نحمل من بسط وفرش وإحرامات ولم أبتئس أنا بخلوها ، فقد كان بساطى وإحرامى أحب إلىّ من كل ما يمكن أن يفرشوه فيها . ولما اطمأننا على أمتعتنا وعلى مكان مبيتنا خرجنا نجول فى القرية فإذا هى بيوت من الطين قائمة على (شاطىء) الرملة يحف بها نخل قليل وفيها حقول تزرع فيها بعض الخضر ، وتسقى من عين جارية وفيرة تقوم برى قسم كبير من الأراضى لو كان هناك مال وكان هناك أيد عاملة تسعى فى توسيع الأراضى الزراعية وتحسين زراعتها . ويحيط بالبلدة وبساتينها ورملتها صخور أهرامية هائلة رهيبة المنظر تمتد من حولها كأنها سور إلهى ... وحياة هذه القرى من الملح الذى يستخرج من السباخ الكثيرة القريبة من البلد ، ويصدر إلى حوران وشرق الأردن .

* * *

بتنا فى دار ابن زيد هذا خير مبيت ، وقد جاؤونا بالعشاء من قصر الأمير ، فلما أصبحنا غدونا عليه ، فرأيناه شاباً ذكياً ليس بالمتعلم ولكن له مشاركة فى بعض علوم الدين ، ويحفظ شيئاً من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم ، تلقاها فى مجالس العلم ، وتلك سنة حسنة استنها الإمام عبد العزيز حفظه الله . فجعل ليله كله للعلم يأتى مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتاباً ، فإذا أتموه شرعوا فى غيره ، وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه ، وقد قلده الأمراء جميعاً فى ذلك ؛ فمن هنا ما يحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات ...

استقبلنا بنفسه على عتبة الباب ببشر وإيناس ، وجلس معنا يحدثنا ونار الغضا تلفح وجوهنا . ولبثنا على ذلك ساعة لم يدع فيها الأمير دقيقة واحدة قَوْلَةَ : قهَوَة . شاهى . شاهى . قهَوَة . يدور علينا بها عبد أسود كأن شفتيه غطاء ووطاء ، وكأن جسمه المحمل ، ثم أديرت علينا المجمرة وفيها البخور ، بخور العود ، فلم ندر ما نصنع بها ؛ ثم وجدنا الأمير يضم عليها طرفى كوفيته أو عباءته حتى يتمشق الطيب ثيابه ، ثم يدعها فصنعنا مثله ، وانتهى العبد من إدارة المجمرة ، فرأيت الأمير ينظر إلينا ، فقام الشيخ الرواف واستأذن ، وقمنا معه على أن نجتمع الظهر بالأمير على الغداء ...

فلما خرجنا ، قال الشيخ الرواف : ألم تسمعوا المثل النجدى ؟ قلنا : وما ذاك ؟ قال : « إذا دار العود فلا تعود » . فعلمت سر نظر الأمير إلينا ، وتمنيت لو دخل هذا المثل بلادنا ، حتى عرفه الناس ؛ ثم ذكرت أن عندنا بحمد الله من لا يفهم بالعود ولا بالعصا ولا يخرج من زيارتك ، حتى تخرج غيظاً من جلدك ...

(لها بقايا) **على الطنطاوى**

التعليم المختلط

للأستاذ رفعة الحنبلي

[بقية ما نشر فى العدد الماضى]

المحبذون لهذا التعليم يلفتون النظر إلى ظاهرتين اثنتين جديرتين بالاهتمام :

أولاهما أن البيئة والتقاليد والعادات هى عوامل قوية تدفع إحدى الأمم فى الإقدام عليه إقداماً تاماً ، وتجعل الأمة الثانية تحجم عنه إحجاماً كلياً

وثانيتهما : شخصية المربى التى تقوم بدورها التربيوى الرفيع فى تمهد الطلبة تمهداً فيه كثير من الحذر واليقظة والرفق واللين تبعدهم عن تسرب المساوئ إليهم – إن كان هنالك مساوئ – وتوجههم نحو المثل الأعلى للحياة الإنسانية الفاضلة ؛ هذه الشخصية هى بمثابة الملجأ الأمين من الأخطار التى قد تهدد حياة الطلبة من جراء الاختلاط ، ولا تنال الغلبة فى هذا الأمر ما لم تتصف بالصفات الجيدة والمبادئ القويمة والخلق القوى والذكاء الحاد والفطنة الملتهبة ، كى تتفهم نفسية الطالب ورغائبه وميوله ...

ولكن أين هؤلاء المربون الذين يتسمون بمثل هذه الصفات جيمها ؟ وأكبر الظن أنهم قليل ... والقلة ما كانت فى يوم ما لتقوم مقام الأكثرية فى تأدية رسالة أو إيفاء واجب

يذهب الدكتور Burness إلى أن التعليم المختلط فى المعاهد الثانوية يقوى العلاقات الاجتماعية ويمكن الصلات الأدبية ، فينشأ الفتى والفتاة فى بيئة تختلف عن البيئة الخاصة التى كانا فيها ، وإنها لأجدى على الفتى والفتاة من أية بيئة أخرى ، إذ يتجه الاثنان فى اتجاه خاص هو من مصلحتهما ، وهى إلى ذلك تضعف فى الفتاة تلك الرقة والحياء والدعة ، فى الوقت الذى يتقوى عندها الشعور النفسى بأنها والرجل سيان فى الحقوق والواجبات

وإذا ما تعمقنا فى دراسة نفسية كل من الجنسين ، وجدنا أن لكل منهما خصائص فردية تختلف فى كل منهما عن الآخر جد الاختلاف ، على أنها تتحد فى الأصل وتختلف فى الفروع بمعنى أن للفتى من الوظائف الفردية الخاصة ما للفتاة ، على أن هذه الوظائف لم تكن لتمنع كلا منهما من أن يتلقى نوعاً واحداً من التعليم أو أنواعاً مختلفة ، فضلاً عن أنهما ذوا قابلية لتعليم خاص . وقد تتباين الاستفادة عند مباشرة الفتاة هذه الوظائف ، فتتجه إلى ناحية غير الناحية التى يسير الفتى إليها

فهناك إذاً خصائص نفسية نسوية type psychologique feminin وخصائص نفسية رجولية type psychologique masculin تمضى بهما إلى غايتهما ؛ ولكن لا بد من التساؤل عما إذا كانت هذه الخصائص المتباينة لها من المزايا ما يساعد على التعليم المختلط أم أنها تقف دونه ؟

كثير من علماء النفس يعتقد أن هذا التباين فى الخصائص مما يساعد على التعليم المختلط مساعدة قوية فعالة ، فالفتيات والفتيان ما كان كل منهما ليكتسب مزايا وفضائل الآخر التى يفتقر إليها لو لم تمهد أمامه سبل الاختلاط سواء فى المعاهد أو فى المجتمعات . ويرى الدكتور Burness أن مراتب التفكير Ordre des idèes فى الرجل هى غيرها فى المرأة ، والتعليم المختلط يحمل كليهما على الاقتباس عن الآخر ما تحتاج إليه الحياة وما تتطلبه منه البيئة ، وبالتالى فإن أفق تفكيرهما ينبسط ويمتد إلى أقصى حدود الانبساط والامتداد . تلك متعة من متع الحياة تتفتح معها النفس لصنوف المؤثرات وشتى ألوان الأحاسيس .

ويعترض البعض الآخر على هذا الرأى بأن الخير كل الخير للمجتمع وللجنسين معاً فى ألا تضعف هذه الخصائص النفسية الخاصة — إذ أن فى ذلك ما يفقدها ، ولو إلى حد ما ، شيئاً من حيويتها وفاعليتها — وأن يحتفظ كل منهما أيضاً بمراتب تفكيره لا يتعداها إلى مراتب غيره ، فبقدر ما يكون الرجل تام الرجولة والمرأة كاملة الأنوثة تكون الجماعة الإنسانية غنية بالوسائل الفعالة التى من شأنها أن تؤثر فى المجتمع وتدنيه من غايته المثلى ، فالواجب على المربين أن يؤدبوا الفتى تأديباً يصبح معه ، فى المستقبل ، رجلاً تام الرجولة ، وأن يتعهدوا الفتاة تعهداً تمسى بعده كاملة الأنوثة ، على ألا ينظر إلى المرأة نظرة ضيقة حقيرة تنال من كرامتها وتحط من شأنها بل نظرة رفيعة تدفعها إلى الاستفادة من خصائصها الخاصة

ويعتقد المربى الكبير Hall أن خصائص ومزايا الجنسين هى غريزية بمعنى أنه لا ينالها تغيير ولا يمسها تطور — فى جوهرها على الأقل — وهى تخضع لنظام يختلف فى كل منهما عن الآخر

اختلافاً كلياً ؛ ويضرب لذلك مثلاً أن الفتاة تفهم من كلمات الوطنية والشرف والعائلة والشجاعة غير ما يفهمه الفتى منها ، فلكل من هذه الكلمات جرْس خاص عند كل منهما ، هذا إلى أن الفتى قد لا يتأثر بخصائص ومزايا الجنس النسوى — إن قدر له أن يتأثر — دون أن يزاوج بينها وبين ما بنفسه من مزايا وخصائص

وهناك عيب لمسه الأستاذ Neff بنفسه بعد اختبار طويل ... هذا العيب يتعلق بالمربى الذى يؤثر فئة من طلابه على فئة ثانية ، أو بالأحرى يعطف على طالباته أكثر مما يعطف على طلابه ، بل وبتحيف حقوقهم أيضاً ، إذ يلمس فى الفتاة دماثة الخلق ، ونعومة الحديث ، وإشراق النفس ، ورقة الشعور كما يدرك فيها مزية الإذعان والامتثال والخضوع ، فتنعم بالعطف والإيناس ، وتتمتع بالرفاهة والدعة ، فضلاً عن أن التنافس الذى يحصل بين هاتين الفئتين له من التأثير القوى على الفتاة ما يدفعها إلى الانكباب على الدرس حتى تفوز على زملائها وتحوز الدرجة الأولى دون تعمقها فى الدراسات وتفقهها فى المذاهب ، وهذا ما يفقر تكوينها العقلى ويضعف تفكيرها ويفسد تصوراتها ، لذلك يقول الأستاذ Rugg إن التنافس يجعل التعليم أقرب تناولاً وأدنى منالاً وأكثر سهولة ولكنه أقل عمقاً وأهمية

ويأخذ بعض علماء النفس على التعليم المختلط ، فى مرحلة التعليم الثانوى ، أنه مباءة للفساد ، إذ أنه يثير الغريزة الجنسية ، فتعصف بالنفس ، ويحرك العواطف فتنفعل الأحاسيس ، ويفقر الخصائص فتضعف الشخصية ؛ وهذا ما يكون خطراً مباشراً على الأخلاق والآداب ؛ وقد تكون الفتاة أقرب إلى هذه المؤثرات من زميلها الفتى وأدنى منه إليها

ويرد البعض الآخر على هذه المآخذ المتنوعة بأن الطبيعة الإنسانية تستدعى هذا الاختلاط ، وتتطلب هذا النظام لما له من الأثر القوى فى حياة الناشئة ، فتوجه العواطف توجيهاً سليما ، وتوحد العلاقات على أساس الثقة المتبادلة ، وتمهد السبيل إلى رفعة الأخلاق وتقرب من الزواج ...

والفتاة نفسها ترغب فى هذا الاختلاط إلى حد بعيد ، وتتوق نفسها إليه ، وتندفع وراءه ؛ فالفتاة كالفتى ، يعتلج فى أطواء نفسها الحب العنيف ، وتتأجج فى صدرها الأهواء ، ويتفتح قلبها إلى الصداقة ، وما عساها تفعل بهذه النوازع ؟ ... إن حبها لشديد ، وإن عواطفها لعنيفة ، وإن خيالها لواسع ، وإنها لتفتش عن أميرها المنتظر ، عن فتاها ، قبلة أنظارها ومحط آمالها ورجاء مستقبلها ، والتى تأمل أن تكون له زوجة فى المستقبل لتنعم بجانبه وتطيب نفسها به ، ولكن أين تبحث عنه ، وفى أية بيئة تجده ، وفى أى وسط تحظى به ؟ ...

إنها قد تجد فتاها الجميل ، الذكى الفؤاد ، الدمث الأخلاق ، الكريم الشمائل ، فى البيئة التى تختلف إليها ، وما هى إلا بيئة المعاهد المختلطة التى تدنيها من غايتها وتحقق أحلامها وآمالها

والفتى ، أليس ينشد مصاحبة الفتاة ، ويميل إلى معاشرتها ويتمنى صداقتها ، إنه ليتلهف إلى اختيار فتاته ، وتصبو نفسه إلى الزواج منها ولا سبيل إليها إلا فى تلك البيئة المختلطة أيضاً .

ويقول العالم الكبير Jourdan « إننا نحصل على أحسن النتائج حينما يجتمع الجنسان فى معهد واحد إذ نرى الفتى أكثر إقبالاً على العمل وأحسن خلقاً ، ونرى الفتاة تؤدى أعمالها فى جو طبيعى وبدوافع أرق وأفضل »

يؤخذ مما تقدم أن الفصل بين الجنسين ليس فى مصلحة النشء ولا المجتمع فى شىء بل ربما كان سبباً قوياً فى تداعى الروابط الاجتماعية وفى تفسخ العلاقات الأدبية

وكما يؤخذ على التعليم الثانوى يؤخذ أيضاً على التعليم الابتدائى ولكن هذا لا يدانى الثانوى فى الخطر ولا يجاريه فى العيوب ، وما ينسب إليه من حسنات ينسب إلى الآخر على السواء

أما فى صدد التعليم الجامعى فيقول الدكتور Joteyko الأستاذ بجامعة بروكسل « إن من الواجب ألا نستنتج استنتاجات هزيلة من الملاحظات التى يبديها البعض ممن يقاومون هذا التعليم ، وألا نرد التأثيرات السيئة التى تحدث عنه إلى هذا النظام بعينه . إن الوقائع التى نلمسها يومياً فى أجواء المعاهد المختلطة تدفعنا إلى الاعتقاد بفساد هذا النظام ، وكثيراً ما تتألم الفتاة من مسلك زملائها الطلاب الظرفاء ، ذلك المسلك الذى يسبب لهن كثيراً من الإيلام ، مما يدفع المرء إلى التفكير فى إقصاء الفتيات عن التعليم المختلط ... ولكن لو أنعم هذا البعض الفكر فى أسباب هذه الوقائع ، لرد دواعيها ومسبباتها إلى نقص فى بعض الأنظمة التعليمية الحديثة ، أو بالأحرى إلى تخلف الفتاة عن المعاهد الثانوية

الحرب في أسبوع

للأستاذ فوزي الشتوي

فرنسا تسلم ؟!

قابل العالم طلب المارشال بتان رئيس وزراء فرنسا لشروط عقد الهدنة بكثير من الحسرة والألم، فقد عقد العالم أمله على المعارك الدائرة في فرنسا لإقرار السلام، وإزاحة كابوس الدكتاتورية ومخاوفها. وظل الجيش الفرنسي يقاتل بعزيمته التي عرف بها إذا دهم وطنه خطر، ولكن الخسائر التي منى بها، والقوات الألمانية التي هاجمته كانت كبيرة العدد كثيرة العتاد، تجاوزت في كثرتها جميع فنون القتال

ففي سنة ١٩١٤ كان عدد الرجال المقدر فنياً للقتال في الميل الواحد عشرة آلاف جندي. ودرس أحد الاقتصاديين العسكريين في سنة ١٩٣٨ عدد الرجال اللازمين للاشتراك في معركة، سواء في حالة الهجوم أو الدفاع، فقدر أن جبهة القتال تشمل ميداناً طوله ١٠٠٠ كيلومتر (٦٠٠ ميل). وانتهت أبحاثه المبنية على الحساب والفن العسكري إلى أن عدد الرجال اللازم لهذه الجبهة في حالة الهجوم مدة سنة، هو تسعة ملايين جندي، تهبط إلى ستة ملايين في حالة الدفاع، أي أن الميل الواحد يحتاج إلى ١٥ ألف جندي تهبط إلى عشرة آلاف في حالة الدفاع

استخفاف بالأرواح

ودرس هذا الإخصائي العسكري ما تحتاجه الجبهة من سيارات مدرعة ودبابات فقدر للميل الواحد ٢٠٠ منها طول السنة.

ولكن القيادة الألمانية خالفت فنون القتال المألوفة معتمدة على ضربات خاطفة، تقصد من ورائها أن تنهي الحرب في أشهر قلائل، ويؤازرها في ذلك سياستها التي جرت عليها من الاستخفاف بأرواح رعاياها، ووضعها في المرتبة الأخيرة أمل الحصول على أغراضها

فوضعت في جبهة طولها ١٥٠ ميلا مليوني مقاتل و٤٠٠٠ دبابة يضاف إليها سيارات النقل والجنود الاحتياطية، فخص الميل الواحد ١٣ ألف مقاتل تقريباً، وإذا قسمنا عدد الدبابات على عدد الأميال يظهر لنا قلة عددها، ولكننا لو ذكرنا أن هذه الدبابات لم تتوزع على طول جبهة القتال، بل قصرت عملها في ميادين خاصة، فكانت الوحدة منها تتكون من ٢٠٠ دبابة لعرفنا قسوة الهجوم الذي وجه إلى القوات الفرنسية، ولوجدنا أن ما قدر له أن يعمل سنة كاملة وضع في الميدان دفعة واحدة

ومعنى هذا أن الحرب إذا طالت سنة احتاجت ألمانيا إلى مثل هذه القوات ثلاثين أو أربعين ضعفا، وهذا مالا يتيسر لألمانيا تحقيقه لضعف مواردها

ومن هنا يرى الخبراء العسكريون أن حرب ألمانيا مع انجلترا ستكون وبالاً على النازية، لأن الحرب ستطول بحكم موقع الجزر

المختلطة، بل والابتدائية منها أيضاً. إذ أن ارتياد الفتاة هذه المعاهد يمكنها من دخول الجامعة بعد أن تكون ماشت الفتى في دوري الطفولة والمراهقة، وهي أشد ما تكون اطمئناناً على نفسها وأخلاقها وآدابها، فتضطرم نفسها بحياة مليئة بالسعادة والهناء والرفاهية والنعيم » لذلك يطالب الأستاذ الكبير Ferrier ألا يقبل في الجامعات من الفتيات إلا من أتممن دراستهن الابتدائية والثانوية في المعاهد المختلطة

ويرى الأستاذ Rouma من شتى الملاحظات التي جمعها أثناء إدارته دار المعلمين في جمهورية بوليفيا الأمريكية أن الفتيان، في اختلافهم إلى تلك الدار، قد تهذبت نفوسهم وأخلاقهم، وصقلت شجاعتهم ورجولتهم، وسمت أخلاقهم وعواطفهم، وجعلتهم اجتماعيين، فإذا بالفتى منهم أنيس الألفة، كريم الشمائل حر الخلال، رفيع التهذيب، أديب المعاملة، أنيق الملبس؛ وإذا بالفتاة قد انتفى عنها الخوف، وتلاشى الجبن، وزال منها الضعف فأصبحت ناعمة بالاستقلال الذاتي، متلذذة بالحياة، واثقة من المستقبل فضلاً عن أن كلا منهما يجد في نفسه مزايا خاصة تسهل التعاون بينهما فيما بعد

***

هذه أوجه الرأي المختلف في هذا الموضوع الجليل، رسمنا خطوطه الكبرى رسماً موجزاً وأوضحنا حسناته وفضائله، وكشفنا عن سيئاته ونقائصه، نلقي بها لدى أرباب العقول النيرة علهم يوازنون بين الرأيين ويرجحون الكفة التي يكون بها الخير للأمة العربية.

(بيروت) رفعة الحنبلي

البريطانية الجغرافى ، وبحكم توفر المواد الأولية فى أمبراطوريتها الواسعة .

لماذا استقال رينو

ومن الجدير بنا أن نقف لحظة إزاء ما قبل الظروف التى أعلنت فيها فرنسا طلبها لشروط الهدنة . ففى ساعات قلائل تستقيل وزارة المسيو رينو ، وتؤلف وزارة المارشال بتان ، وتصبغ بالطابع العسكرى ، ويشترك فيها جميع قواد القوات الفرنسية من برية وبحرية وجوية . فهل يدل هذا على أن المسيو رينو رفض أن يتولى إصدار قرار طلب شروط الهدنة الخطير ؟ وإذا كان هذا صحيحاً فما هى الدوافع لاستقالته ورفضه ؛ هل هى اختلافه فى الرأى مع العسكريين ؟ أم أنه فضل أن يتلقى الشعب الفرنسى النبأ السيء من القادة أنفسهم ؟

فالشعب الفرنسى معروف بحبه للحرية ، معروف بتقاليده الوطنية التى لا تقبل الهزيمة ، معروف بتضحياته السامية وبسالته التى لا تقهر ، مما يدعو الساسة إلى التردد بل والامتناع عن إصدار مثل هذه القرارات المؤلمة

ويبدو لنا أن الاختلاف هو فى الرأى أيضاً ، فقد غضب بعض كبار القواد العسكريين لطلب الهدنة ، وطالب الجنرال ديجول الشعب الفرنسى الحر بأن يتصل به فى انجلترا ليواصل القتال ، ولينزع عن بلاده ألم الهزيمة ، وليخلصها من القيود التى قد يفرضها عليه الأعداء . ورأى هذا القائد له قيمته إذ كان أحد مساعدى المسيو رينو ، وكانت له يد فى توجيه السياسة العسكرية والاقتصادية

فإذا قبلت فرنسا شروط ألمانيا فلن يعنى هذا أن رجال فرنسا ستغادر الميدان ، بل إنهم سيواصلون الكفاح . وسيلحق بهم فى هجرتهم عدد كبير من الفرنسيين الذين لن يطيقوا أن يعيشوا تحت شروط الألمان والذين لن يطيقوا أن يتركوا بلادهم وسيادتها تحت رحمة النازيين . فقد ظلت فرنسا عدة قرون وهى دولة من المرتبة الأولى ، لها صوتها المسموع ، ولها إرادتها المحترمة ، فهل يقبل شعبها أن تصبح من المرتبة الثالثة ، بينما حليفتهم تقاتل فى الميدان ؟ إن العصبة الفرنسية تقول محال ، أو كما قال الجنرال ديجول « إن شعلة المقاومة الفرنسية لن تنطفئ . لن تنطفئ »

مناورة بارعة

ولقد كان اقتراح بريطانيا اتحاد الجمهورية الفرنسية بالأمبراطورية البريطانية مناورة سياسية وعسكرية بارعة ، فهى تعطى لفرنسا مضماراً جديداً لاستئناف نشاطها ، وتدل على حسن النية والتضامن فى السراء والضراء مما يجلب عطف العالم على قضية الحلفاء ، ويدل دلالة مادية أن الطمع ليس العامل الحقيقى فى هذا القتال ، بل هو سعادة العالم . وإلا فما الذى يدفع بريطانيا بامبراطوريتها العظيمة ، لأن تقدم مواردها لإصلاح أضرار فرنسا ولأن تشاركها فى مصابها الحالى ؟

ولو تم هذا الاتحاد ، لكان له أثر عظيم فى سياسة العالم المقبلة ، ولكان فتحاً جديداً لتكوين اتحاد أوربى عام ، يعمل على إقرار السلام ، فتزول الأحقاد ، وتحد المطامع ، ويشعر العالم برباط المصلحة المتبادلة

هتلر بين نارين

وكان هذا التصريح بارعاً كما قلنا لأنه وضع ألمانيا بين نارين، فإذا هى غالت فى طلباتها من فرنسا رفضت فرنسا الصلح واتحدت مع انجلترا واستمر القتال إن لم يكن فى فرنسا ففى المستعمرات ، ولمستعمرات فرنسا شأن كبير فى معركة البحر الأبيض ، ففى تونس والجزائر ومراكش موان وقوات فرنسية لها قيمتها فى الجزء الغربى للبحر

ومن الناحية الثانية يفيد عدم غلو ألمانيا فى طلباتها ، فإذا احتفظت فرنسا بقواتها البحرية والجوية ، ولم تنضم إلى الدكتاتورية ولزمت الحياد تضمن انجلترا سيادتها البحرية على القوات الإيطالية ، كما تضمن أن تظل القواعد الفرنسية فى غرب البحر الأبيض فى أيد محايدة تعطف على قضية بريطانيا

ويصعب علينا الآن أن نقدر أثر هذا التصريح ، ولكنه يدل على شعور الديمقراطيات بعطف متبادل ، ومشاركة فى الآلام ، أو كما يقول المثل العربى «عند الشدائد تعرف الإخوان» وهل بعد محنة فرنسا الحالية شدة ؟

اذا قبلت الشروط

وإذا انسحبت القوات الفرنسية من الميدان ، فإن ميدان الحرب يتحول من البر إلى البحر والجو ، وهما الميدانان اللذان يمكن أن تشتبك فيهما القوات الديمقراطية مع القوات الدكتاتورية ، اللهم إلا إذا حولت ألمانيا قواتها لغزو البلقان ، فعندئذ يتغير الموقف تغيراً بسيطاً ، ولكن النصر النهائى يتقرر فى هذين الميدانين ، ولإنجلترا فيهما التفوق العسكرى

فشل الحرب الخاطفة

ويتغير موقف ألمانيا قِبل انجلترا فتضطر إلى الانتظار مدة يتاح فيها لأميركا تقديم معاونة جدية ، وإعداد مصانعها الإعداد المنشود ، فلا مفر إذن من فشل خطط ألمانيا في الحرب الخاطفة ، ولا سيما أن قوات انجلترا ما زالت سليمة ، ففي الجزر البريطانية وحدها مليونا جندي بعضهم جنود نظامية ، وبعضهم للدفاع المدني

فإذا عمدت ألمانيا إلى مهاجمتها عن طريق الجو ، فإن القوات الجوية ليست عاملاً فعالاً في الاستيلاء على البلدان ، بل يجب الاستناد إلى قوات برية ، وهنا تبرز معضلة ألمانيا الكبرى . فكيف تنقل قوات تقاتل هذه قوات انجلترا الكبيرة ؟

كيف تغزو انجلترا ؟ ؟

أمامها في هذه الحال طريقان : وهما البحر والجو ، فإذا سلكت طريق البحر احتاجت إلى أسطول ضخم لحماية السفن من الأسطول البريطاني ، وهي لا تملك من السفن الآن ما يضمن لها تحقيق هذه الغاية ، فإذا لجأت لحمايتها بالأسطول الجوي ، فإن الطائرات البريطانية تنازعها السيطرة على بحرها ، ولا سيما لقرب قواعدها وتفوق طائرات القتال البريطانية

فإذا قلنا يمكنها أن تفعل ما فعله الحلفاء في دنكرك عندما أنزلوا قواتهم من منطقة الفلاندر ، فإن الموقف متغير لعدة عوامل :

١ — تفوق أسطول انجلترا البحري

٢ — تفوق أسطول انجلترا الجوي وخصوصاً طائرات القتال

٣ — المدافع الساحلية ، وهي من القوة بحيث تكفي لصد أساطيل حربية

٤ — حقول الألغام المبثوثة حول الشواطئ البريطانية ، وهي تحتاج إلى قوات كبيرة لانتشالها

٥ — وجود قوات كبيرة في بريطانيا

فهذه العوامل متجمعة تجعل من المستحيل على ألمانيا إنزال قواتها في انجلترا عن طريق البحر ، فضلاً عن أن قوات الحلفاء التي نقلت من دنكرك لم تحمل معها أسلحة تذكر ، ومن البديهي أن نقل الرجال أسهل بكثير من نقل الأسلحة

غزو انجلترا جواً

وناقش أحد رجال انجلترا العسكريين احتمال غزو انجلترا عن طريق الجو على هدى الخطط العسكرية الألمانية ، فقال إن ألمانيا تحتاج في هذه الحالة إلى ألف طائرة تسع كل منها أربعين جندياً بعدادتهم من الأسلحة الخفيفة ، فتحمل هذه الطائرات حمولتها من الرجال من قواعد قريبة من انجلترا كميناء كاليه مثلاً ، فتهبط الدفعة الأولى بالمظلات الواقية وتحتل بعض المواقع وخصوصاً المطارات ، وتحتفظ بها فترة من الزمن حتى يتاح للطائرات أن تعود بأربعين ألف جندي آخر

وعمل الدفعة الأولى أن تحتفظ بمواقعها إلى أن تأتيها الدفعة الثانية فالثالثة فالرابعة ، إلى أن تستقر القوات في مكان يتيسر للطائرات الألمانية الهبوط فيه . ومن ثم يبدأ الغزو الحقيقي للجزر البريطانية

وإذا قلنا إن هذا المشروع مشروع انجليزي ، أدركنا أن الإنجليز أعدوا له العدة اللازمة من جنود إقليميين ونظاميين ، وأن الألمانيين لن يجدوا الجزر البريطانية لقمة سهلة المضغ ، وفضلاً عن هذا فإن الطائرات لا تستطيع حمل الأسلحة الثقيلة من دبابات ومدافع ميدان لتجابه بها المدات الإنجليزية

بريطانيا وألمانيا

أما كيف تقضي بريطانيا على قوات ألمانيا ، فلها في ذلك وسيلتان :

١ — الحصر البحري

٢ — استغلال فرص القتال

فأما الحصر البحري فأمره معروف ، وهو يقضي بمنع المواد عن ألمانيا إلى أن تنهار حياتها الاقتصادية وبالتالي قواتها العسكرية

وأما استغلال فرص القتال فهذا موضوع يعود بنا إلى أيام نابليون ، فقد ظلت المداواة قائمة بين فرنسا وانجلترا من سنة ١٨٠٣ إلى سنة ١٨١٤ استولى أثناءها نابليون على أوربا كلها تقريباً ، وكانت انتصاراته المتتابعة تملأ آذان العالم . وكانت انجلترا تستغل تمرد الدول المختلفة

فقد فرض نابليون سيطرة أسرته على جميع الممالك من أسبانيا إلى قلب أوربا ، وعين إخوته ملوكا على إيطاليا وأسبانيا ، وحالف تركيا والروسيا في أدوار مختلفة ، ولكن الدول الأوربية ما لبثت أن تمردت عليه وهاجمته قواتها من جميع الجهات حتى استولت على باريس . وكانت انجلترا في هذه الأثناء لا تترك له فرصة

رسالة الشعر

صاحب البعثة الكبرى

[إلى القطيع المشرد التائه ، التمدن الوحشى ، السابح فى الدماء . . .]

للأستاذ محمد بهجة الأثرى

خَلَتِ الدُّهورُ وأنتَ أنتَ الأوحدُ ... ذِكرى مُقدَّسةٌ ومجدٌ سَرْمَدُ !
تتضاءلُ العُظَماءُ عندكَ والكُنَى ... وتَحُطُّ شاهقةٌ ويصغرُ سُؤدُدُ
كالطَّوْدِ تضربُ فى السماءِ شِعافُهُ ... وعلى قواعدِهِ المنازلُ ترقُدُ !
قُدسُ النُّبُوَّةِ من يُطاوِلُ سَمْكَهُ ... أو مَنْ يَرُومُ سماءَهُ أو يصعَدُ ؟
هي مَظهَرٌ لله جَلَّ جلالُهُ ... لم يُعطِها غاوٍ ولا مُتمرِّدُ
قد كنتَ صَفوَةَ خَلقِهِ نجبا كما ... شَرَفًا ، فأنت المُصطفَى المتفرِّدُ
وَقَفَ الفلاسِفةُ الكِبارُ تَخَشُّعاً ... مِن دُونِ بابِكَ ظامئينَ لِيَجْتَدُوا
رادُوا الينابيعَ التى فَجَّرْتَها ... ماءً وَظِلاً بارداً واستَوْرَدُوا
ما كلُّ ماءٍ كالفُراتِ مَذاقُهُ ... كلاَّ ، ولا كلُّ المراعى يُحمَدُ
كَمْ مِنْ زَعامَةِ سَيِّدٍ مَحَّصْتَها ... فأنى عليها النَّقدُ لا تتجلَّدُ

يستقر فيها ، فهاجمته فى تركيا ، وأسبانيا ، وفى البرتغال ، وفى بلجيكا إلى أن استنفدت جميع موارده وهزم الهزيمة النهائية فى واترلو

ولا يختلف موقف هتلر عن موقف نابليون ، فهو يحتل بلاداً نعم أهلها برحيق الحرية ، وتأصلت فى نفوسهم روح الوطنية ، فإذا كبتوا شعورهم تحت ضغط الحديد والنار لحظة ، فلن يلبثوا أن يتمردوا لحظات ، فتذكى انجلترا شعورهم وتأخذ بيدهم ، وتمهد السبيل للقضاء على الطاغية .

فوزى الشتوى
بكالوريوس فى الصحافة

يَبْنُونَ مَجْدَهُمُ على قَهْرِ الوَرَى ... والمَجْدُ يَبْرَأُ منهمُ والسُّؤدَدُ !
ألفَتْحُ عندَهُمُ هَوَىً وتَعَسُّفٌ ... ومَمالِكٌ تَهْوِى وأُخرى تُخمَدُ
أسَراءُ أهْواءِ النفُوسِ تَخُدُّهُمْ ... يومٌ ، وأما ذَمُّهُمْ فَمُؤبَّدُ
لم يَظْهَرُوا إلا لِيَخْفَوْا مِثلَما ... تَبْدُو فقاقيعُ السُّيُولِ وتَهْمُدُ
وظَهَرْتَ مِثلَ الشَّمْسِ إلا أنها ... تَخْفَى ونورُكَ فى الخليقةِ سَرْمَدُ !
وبَنَيْتَ بالحقِّ المبينِ فلا هَوًى ... يَطْغَى عليكَ ولا مُنًى تترَصَّدُ
ألفَتْحُ عِندَكَ شِرْعَةٌ وعقيدةٌ ... وأُخُوَّةٌ وتَراحُمٌ وتَوَدُّدُ
دُسْتُورُكَ الفُرْقانُ : أمَّا وَعْظُهُ ... فهُدًى ، وأمَّا حُكمُهُ فَمُسَدَّدُ
عالٍ على الأهْواءِ لا مُتَمَلِّقٌ ... أحدًا ولا مُتعسِّفٌ يتمرَّدُ !
كالسَّرْحَةِ الغَيْناءِ غُصْنٌ مُثْمِرٌ ... وَخَميلَةٌ تَنْدَى وظِلٌّ أبْرَدُ !
تأْسُو جِراحَ الخَلْقِ بالخُلُقِ الذي ... تَرْوَى القُلُوبُ به وتَشْفَى الأكبُدُ
ولكَ السَّماحَةُ والسَّجاحَةُ والنَّدَى ... وهُدَى النُّبُوَّةِ والفَعالُ الأرْشَدُ
نَسَقٌ مِنَ الخُلُقِ العظيمِ كأنَّهُ ... فَلَقُ الصَّباحِ وَحُسْنُهُ المُتَوَقِّدُ
تدعو إلى أدَبِ الحياةِ وعِلْمِها ... وَتُنيرُ دُونَهُما السَّبيلَ وَتُرْشِدُ
تَسَعُ الأنامَ جَميعَهُمْ لكَ مِلَّةٌ ... غرَّاءُ تَهْدِى العالَمِينَ وَتُسْعِدُ
أزَلِيَّةٌ أبَدِيَّةٌ لا سِرُّها ... يَخْبُو وَلاَ إشْعاعُها يَترَبَّدُ !
يَزْكُو عليها الرُّوحُ فَهْوَ مُنَزَّهٌ ... عمَّا يَشِينُ وَجَوْهَرٌ يَتَوَقَّدُ
الوَحْيُ أُسُّ بنائِها العالى الذُّرا ... وَالحَقُّ حائِطُ رُكْنِها وَالمُحْتِدُ
وَالفَتْحُ وَالعُمْرانُ من آرابِها ... وَالعَدْلُ والعَيْشُ الرَّخِيُّ الأرْغَدُ
دُنْيَا أقَمْتَ عَلَى العَقِيدَةِ رُكْنَهَا ... ومن العقائدِ ما يَشِيدُ وَيُخْلِدُ
هِىَ هَيْكَلٌ فانٍ ، فإنْ حلَّتْ بهِ ... رَفَّتْ بها الحَوْباءُ وَهِىَ تَرَأَّدُ
يَنْبُوعُها التوحيدُ: مَشْرَعُ مائهِ ... لِلْوارِدِينَ ، وَنَبْعُهُ لاَ يَنْفَدُ
جَمُّ الأيادِى فالأنامُ بِخَيْرِهِ ... وَبِخِصْبِهِ مُتَقَلِّبُونَ وَهُمْ يَدُ
ما الناسُ ـ لولا البَغْيُ ـ إلاَّ أُمَّةٌ ... وَالدِّينُ ـ لولا الجهلُ ـ إلاَّ أوْحَدُ
ما أحْسَنَ التَّوْحِيدَ يَجْمَعُ شَمْلَهُمْ ... فيَعُودَ وَهْوَ مُنَظَّمٌ وَمُوَحَّدُ !
بِسَناهُ أخْرَجْتَ الشُّعُوبَ من العَمَى ... وَهَدَيْتَها لِلنَّهْجِ وَهْوَ مُعَبَّدُ

فاستُؤصِلت فوضى وقامت دولةٌ … وخبت هياكلُ واستنار المسجدُ
ومشت على يَبَسِ الصعيد حضارةٌ … باليُمنِ تُشرقُ والهناءةِ ترغدُ
إنّ الجمالَ خفيّهُ وجليُّهُ … إكسيرُها وشعاعُها المتجسِّدُ !

***

بُعدًا لمفتونين لم يُعرفْ لهم … رأيٌ يُجَلُّ ولا مقالٌ يُحمَدُ
نفَوا الرسالةَ وازدرَوها دعوةً … زمنيّةً أفلت وليسَ لها غدُ
خُصّت بجيلٍ قد مضى، وبحقبةٍ … طُويت، وأمرٌ رثٌّ لا يتأبّدُ
خسئوا. فما عرفَ الحقائقَ ماجنٌ … خلعَ العِذارَ، ولا غبيٌّ مُلحِدُ
البعثةُ الكبرى حياةٌ للورى … أبدَ الزمانِ ونعمةٌ تتجدّدُ
عمّت ولكن قد خُصِصتَ بفضلها … يا آخِرًا هو أوّلٌ متفرّدُ !
إنّ الأُلى زعموكَ سيّدَ قومِهِ … كذبوا . فإنّكَ للبريّةِ سيّدُ !
شمسٌ، وهل تختصُّ ناحيةٌ بها … وشعاعُها في كلّ أُفقٍ عسجدُ !
المرسلونَ، وأنتَ درّةُ عِقدِهم … خُتِموا بسرّكَ في الزمانِ وخُلِّدوا
أيّدتَ دعوتَهم وصُنتَ جلالَهم … فأريتَنا كيفَ الإخاءُ يُوطَّدُ !
يا رائدَ الإصلاحِ يلتمسُ الهدى … هذي منابعُهُ، وهذا المورِدُ !

***

ومن العجائبِ معشرٌ أنجبتَهم
نبغوا بدينكَ في العُلى واستمجدوا
من بعدِ رعي الشاءِ قد رعَوا المَلا … فانصاعَ جبّارٌ، ودانَ مُسوَّدُ !
أطلعتَهم غُرَرًا بآفاقِ العُلى … يمشي بنورِهمِ الزمانُ ويُنشِدُ
تتخايلُ الدنيا بعزّةِ مُلكِهم … وتكادُ من فرحٍ بهم تتميّدُ !
من مُعجزاتِ الدينِ في أخلاقِهم … خُصّوا بصُنعِ المعجزاتِ وأُفرِدوا
من كلّ وضّاحِ الجبينِ كأنّه … ينشقُّ في الظلماءِ عنه الفرقدُ
جَمُّ الجلالِ تكادُ تستذري به … شُمُّ الجبالِ ويتّقيه المُزبِدُ
يمشي بهم للفتحِ يحدو شوقَهم … دينٌ يثوبُ لآيِهِ المتشدِّدُ
أذكى عزائمَهم وأورى زندَهم … فاستفتحوا أُمَمَ البلادِ وأبعدوا
نظموا الممالكَ بينَ قطبيها، ولو … وجدوا وراءَ البحرِ أرضًا أوردوا
في حقبةٍ قصُرت كأنّ زمانَها … يومُ الوصالِ وحُسنُهُ المتورِّدُ !
حفلت بآياتِ الجلالِ زواهرًا … يفتنُّ فيها الناظرُ المتصعِّدُ

***

تلكَ الحضارةُ لا مظاهرُ زُخرفٍ … تُغري وباطنُها العذابُ الأسودُ !
نارٌ ولا نورٌ، وطغيانٌ ولا … زجرٌ، وأهواءٌ ولا مسترشِدُ !

***

يا ربِّ ! أهلُ الغربِ جُنَّ جنونُهم
وطغى القويُّ على الضعيفِ يُعربدُ
الأرضُ نارٌ، والسماءُ جهنّمٌ … والبحرُ بركانٌ يثورُ ويُزبِدُ
لم يبقَ شبرٌ لم يُصَبْ بمجازرٍ … أو لا يُراعُ بمثلِها ويُهدَّدُ
عزّ السلامُ وأنذرت غاراتُهم … أنّ القيامةَ حانَ منها موعدُ !
يا ربِّ ! والقومُ الهداةُ تعسّفوا … سُبُلَ العمايةِ خلفَهم وتورّدوا
هجروا سبيلَكَ ظالمينَ نفوسَهم … فتفكّكت أوصالُهم فاستُعبِدوا
سلبَ الطغامُ ديارَهم وتأسّدوا … وبغى اللئامُ جلاءَهم وتوعّدوا
وهمُ شتاتٌ: دينُهم متفرّقٌ … سُبُلًا ودنياهم شقاءٌ أنكدُ
شِيَعٌ تطاعنُ بينها ومذاهبٌ … شتّى وأحوالٌ تُقيمُ وتُقعِدُ
قومٌ وراءَ الغربِ في آثامِهِ
ركضوا خيولَ الموبقاتِ وأطردوا
ومُصرَّعونَ من الضلالِ كأنّما … أوهامُهم سُمٌّ يدبُّ ومُرقِدُ
هي أزمةٌ يا ربِّ لطفُكَ وحدَهُ … يُرجى لها فلعلّ لطفَكَ يُنجِدُ
النورُ أُطفِئَ والزعامةُ أخفقت … والبغيُ طبّقَ والقطيعُ مشرّدُ
يا ربِّ ! فليطلُعْ (كتابُكَ) بالهدى
يا ربِّ ! وليقُمِ النبيُّ (محمّدُ)

(بغداد) محمد بهجة الأثري



تأملات :

اللهم احفظنـــا !

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— عينا من هاتان القاسيتان اللتان أخفيت وجههما لتنظر فيهما ؟ ... أرنى هذه الصورة ... بيلالوجوزى ؟ ! دراكولا ؟ ! لم أكن أحسب أن هناك من يجد المتعـة فى النظر إلى عينى دراكولا ... مصاص الدماء

— لك الحق ! فمن كان مثلك ، فإنه لا يستطيع أن يفتح عينيه فى عينى دراكولا

— مخيفتان ! !

— من غير شك ، ولـكن لـماذا هما مخيفتان وهما ، مهما كانتا ... عينان ...

— لا أدرى ، ولـكنه يخيل إلى أننى لو قابلت دراكولا ، والتقت عيناه بعينى لما استطعت إلا أن أمد له عنقى ليمتص من دمى ما يشاء ...

— فإذا قابلت لاندرو ؟ !

— ومن لاندرو ؟

— سفاح فرنسى كان يصيد الفتيات والنساء الصغيرات بنظراته ، حتى إذا تملكهن انفرد بهن وقتلهن واستولى على حليهن ودفنهن

— يا حفيظ ! وكيف كان يصيدهن بعينيه هـذا الرجل البغيض المجرم ؟ .. ماذا كان يجذبهن إليه ؟

— شىء مثل الذى فى عينى دراكولا ، وقد قلت : إنك لو رأيت عينى دراكولا ورأى عينيك لما استطعت إلا أن تسلمى له جيدك هذا المرمر ، ليمتص ما شاء من دمك ...

— وما الذى فى عينى دراكولا ؟ ! أرنى الصـورة ... أرنى ... قسوة ! ...

— وهل تغرى القسوة بالإقبال عليها وبذل الدماء لها ؟

— إذن فما الذى فى هاتين العينين ؟ إنه على أى حال شىء كريه ، ومع ثقله على النفس له سيطرة وسيادة وأمر لا مفر من طاعته ...

— فبأى الأسماء تسمين هذا ؟

— إنهما عينان تطمنان نفس الذى تنظران إليه ...

— ولـكن المطعون لا يزحف إلى طاعنه ...

— لولا أنهما تؤذيان لقلت إنهما جذابتان

— ولماذا تخلقين التناقض بين الجذب والأذى ؟...أما يجذب العنكبوت الذبابة وفى انجذابها إليه هلاكها ؟ أما يجذب الفسفور الأكسجين ، وفى انجذابه إليه احتراقه ؟ إن عينى دراكولا جذابتان ومؤذيتان ... ولم لا ؟ !

— إنهما حقاً عجيبتان ... قل لى ما هما ؟

— ها هما ان أمامك ... أنظرى إليهما تعرفيهما ··· بل إنك تعرفينهما وتخافينهما كما قلت ، فماذا تريدين منى أن أقول لك عنهما ... إنى أستحى ...

— أنت تستحى ؟ ! صحيح مؤدب جداً، تقى جداً، تقى ورع ···

— أنظرى إلى عينى ... عينى أنا ؟ ...

— ها أنا ذى نظرت ... هيه ... «إخص» عليك! تلعب لى حاجبيك ؟ ! ··· أما إنك مسخرة !

— أأنا المسخرة أم المسخرة أنت ؟ أنا نظرت إليك ورقص حاجباى فوق عينى أثناء ما كنت أنظر إليك ، فلماذا ضحكت ، ولماذا قلت ما قلت ؟ ألأن حاجبى رقصا ؟ هبيه زر طربوشى أرقصته نسمة وأنا أحدثك ؟ أفكنت تضحكين ؟ أو هبينى نظرت إليك وعبثت بأصابعى و « طقطقتها » ··· أفكان هذا يضحك ؟

— ولـكن تلعيب الحواجب له معنى ···

— وأين رأيت هذا المعنى ؟ فى قاموس ؟ أم فى جامعة أستاذها كشكش ؟

— ليس حتماً أن تكون كل المعانى التى يدركها الناس مسجلة فى كتب وقواميس أو مما يلقى عنه الأساتذة دروساً ومحاضرات فى الجامعات ... بل إن هذا المسجل فى الـكتب والقواميس ، وهذا الذى يلقى فى الجامعات والمدارس لهو الأقل من العلم ، والأبعد عن حاجة الحياة ...

— أنا معك في هذا ... والآن قولي لي ... لماذا أنت إذا نظرت إلى عيني دراكولا خفت منهما ومع هذا الخوف انجذبت إليهما ... ولماذا أنت إذا نظرت إلى عيني أنا ضحكت ومع هذا الضحك انجذبت عنهما ... تفرين مما يضحكك وتندفعين إلى ما يخيفك ؛ لماذا ؟

— أنا التي أريد أن أعرف السبب ، بل إني قبل أن أعرف السبب أريد أن أعرف ما هذا الذي في العيون ينتقل منها إلى العيون الأخر فينتقل معه أشياء من النفوس إلى النفوس الأخر ...

— أما هذه فإشعاعات ... هي انعكاسات نورانية أو نيرانية تنبعث من نفس إلى نفس عن طريق منافذ النفس والعيون من هذه المنافذ ...

— وهل غير العيون للنفس منافذ ؟

— الفم وإن كان لا ينشط في هذا كثيراً إلا عند النساء والمتنين ، واليدان ، والجلد ... وغير ذلك ... وغير ذلك ...

— دعنا من ذلك فإني أريد أن نبق الآن في حديث العيون

— قبل أن أدعنا من هذا أقول لك المرة الألف امسحي هذا الأحمر من فوق شفتيك فإن المعبر فيك عن نفسك يا هذه هو فك ... هو الجذاب فيك

— ولا شيء غير فمي ؟

— الآن حلا لك أن نترك حديث العيون لتتحدث عن ذاتك الكريمة ؟ ... دعينا من هذا وعودي بنا إلى العيون وقولي لي بأي شيء تفسرين ما يفعله النساء في مصر من تبخير اللواتي تصيبهن الأعين منهن ؟ ...

— هذه خرافة من خرافات الجاهلات العجائز ليس لها شأن بما نحن فيه

— بل هي علاج مما تعلمه هؤلاء الخبيرات العجائز وهي ليست شيئاً غير ما نحن فيه ...

ألا تعرفين متى يقولون إن فلانة أصابتها عين ؟

— عند ما يعتقدون أن حاسدة حسدتها . والذي أعرفه أنا عن الحسد هو أن يتمنى إنسان زوال النعمة عن إنسان آخر ، ولكن لست أدري كيف يتصورون أن أمنية خاطئة شريرة كهذه إذا ثارت في نفس إنسان حاسد كان لثورتها هذه أثر حق في المحسود . ولأني أعجز عن تصور هذا أقول إن حديث الحسد والعين خرافة وإن المشتغلات به من الكوديات ، والمشتغلين به من مشايخ الزار دجالون بضاعتهم وتجارتهم التي يروجونها بين الناس أوهام وأباطيل .

— إنك مخطئة ، فالحسد والعين ليسا خرافة ، ومشايخ الزار و « الكوديات » ليسوا جميعاً دجالين ، فمنهم الدجالون حقاً ، ولكن منهم أيضاً علماء النفس المتمكنين منه علماً وعملاً وكهانة وسحراً ... تصوري « بهلواناً » ...

— ماذا ؟

— البهلوان الذي يمشي على الحبل ويقفز في الجو من عقدة إلى عقدة ، ومن حلقة إلى حلقة ... ألا تعرفين ؟ ... هذا « البهلوان » يقوم بألعابه هذه كل ليلة ، وهو لأنه مدرب عليها وحاذقها يوفق فيها دائماً كما يوفق دائماً كل عامل مدرب وكل لاعب مدرب . وإذا نظرت إلى هذا « البهلوان » ، وهو يقوم بألعابه هذه ترين أنه يأبى أن يسلم عينيه لنظرات الناس ، فهو دائماً متجه بنظره إلى لا شيء ، أو إلى عينين يحبهما ويطمئن إلى إعجابهما به ؛ أما غير ذلك ، فهو يخشى لو أنه تلقى نظرات الناس أن يتلقى فيها نظرات شك كما ينبعث منها الحذر عليه من الفشل في لعبه ، والفشل في لعبه معناه الموت . والذي يخشاه من هذه النظرات الشاكة هو أن ينتقل شكهما فيه إلى نفسه ، فيشك في نفسه ، فيتردد في حركاته ، فيختل توازنه في قفزة ، أو في همة أو في هبطة ، فيضيع ، وكما يخشى هذه النظرات الشاكة يخشى أيضاً النظرات الحاسدة التي ينعكس منها بصراحة تمني زوال هذه البراعة عنه ، وهذا شيء يبعث في نفسه قوة تتجه إلى إقناع عقله بأن هذه البراعة لن تزول عنه ، هذا إذا كان قوياً ، أما إذا كان في نفسه شيء من الضعف ، فإنه قد يسائل نفسه : أليس ممكناً أن تزول هذه القوة عني ... وماذا أصنع إن هي زالت ؟ ! ... ثم من يدريني إذا كانت قد زالت فعلاً ، أو أنها لا تزال باقية ؟ ... وهذه الاضطراب وهذا الانشغال يستنفدان كثيراً من قوة « البهلوان » ومن جهده بعد أن كان يتجه بقوته كلها وبجهده كله إلى إتقان ألعابه ... فلا عجب بعد ذلك إذا هو فشل وهو غارق في هذه الزلزلة ، فإذا فشل قالوا أصابته العين والعين أصابته فعلاً ، وهم يعالجونه بالتبخير والترنح والفوضى الحركية التي يمارسونها في الزار لأنه بهذا يخدر أعصابه ويكف إرادته عن السيطرة على تفكيره ، فيوحون إليه وهو في هذه الحال

بأنه مصون ، وبأن الله حافظه ، وبأن الصلاة على النبي واقيته ، وبأنه عن أي سبيل من سبل الاطمئنان قوي قادر بارع له أن يثق بنفسه وألا يعود مطلقاً إلى الشك فيها ، وألا يعود مطلقاً إلى الخضوع لنظرة شكاكة أو نظرة حاسدة . . . وكما تصيب العين الإنسان الفرد فإنها أيضاً تصيب الإنسانين ، فهما إذا تحابا وتبادلا الإخلاص والتقيا وهما في حالة من حالات الغموض المريح الذي يسعدان به ورأيا عيناً تنظر إليهما نظرة مستفسرة عن هذا الغموض مصرة مصممة على ألا تفرض فيه خيراً ثار في نفس كل منهما الشك في صاحبه والشك كسر يصيب ما بين المخلصين من ود ، وجبره صعب ... والأصل نظرة تنطبع في عقل المصاب فيلازمه الضعف والفشل

— هذا كلام طيب ، ولكنه لا يزال بعيداً عن نظرة دراكولا ، ونظرة لاندرو ، ونظرتك أنت الضحكة السخيفة...

— بعد كل هذا اللت والعجن لا أزال بعيداً... إن نظراتنا جميعاً : أنا ودراكولا ولاندرو تسأل وتجيب عما تسأل عنه وتطلب وتأخذ الذي تطلبه في آن واحد ... وكل ما بينها من فرق يعود إلى اختلاف الموضوعات التي تهتم بها ... فدراكولا ينظر إلى فريسته وهو يقول أنا قوي ، وإلى جانب قوله هذا يسأل : وأنت ؟ وإلى جانب سؤاله هذا يجيب : ضعيفة . وإلى جانب إجابته هذه يطلب : هات دمك لي لحياتي أثمن من حياتك وأبقى وأشد امتلاء ، وأظهر وأنفع ، وهو إلى جانب ما يطلب هذا يأخذ ... وهو يأخذ لأن فريسته لا تستطيع أن تكذبه ... كنظرة القط إلى الفأر ؛ فالقط يقول بنظرته للفأر أنا أقوى منك وحياتي أظهر من حياتك وأنت غذائي فتعال إلى لآكلك فأنا جائع ، فيقف الفأر ، أو لعله يدنو إلى القط بنفسه ... كلمة النار أمام الفراشة تقول لها أنا وضاءة لماعة حية ظاهرة متألقة فماذا أنت ؟ تعالي إلى واحترقي في لثمي لمة ، ولتومضي ومضة ولتكوني لي طعاماً ... فتأتيها الفراشة مقتنعة ... هي سيادة وهبتها الطبيعة لمخلوقات تفرضها على مخلوقات ترضى بها ...

— ولاندرو ؟

— لاندرو يهتك فريسته بعينيه ، يقول لها : أنا ميال ، وأنت ميالة ، فتعالي نتعاط ما نميل إليه ... لا تكذبي ولا تمرضي فأنت تريدين مثل الذي أريد ... تعالي ...

— يا مغيث! وأنت تستعين بتلعيب حاجبيك لعجزك فتضحكني

— ليس هذا لعجزي ، وإنما لأفهمك أنه عندي نوع من العبث ، لا أجد الجد كله فيه ...

— من خيبتك ...

— هذه الخيبة أدعوها أنا تسامياً ... وثق يا حضرة الدرة المصونة ، والجوهرة المكنونة ، أنني لو لم أر في هذه الخيبة حسناً وإحساناً ، وأني لو عمدت إلى الإصابة بعيني وفمي

— ويديك وجلدك وغير ذلك وغير ذلك ...

— نعم ... لكنت وحشاً لا أحب أن أكونه ...

— اللهم احفظنا ... الآن في عينيك بريق كالذي في عيني دراكولا ...

— والآن في جيدك حنين يسبح تحت جلده ... تعالى ... ولا تقاوى لئلا تجمد عيناك ويغلظ جلدك

— يا أمه ! ...

عزيز أحمد فهمي



محاكمة بدوية أمام الأمير نوري الشعلان (*)

— السلام على الأمير

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

— أنحن بحضرة النوري بن شعلان ؟

— إي بلله ، وأنتم من ؟

— نحن من جبل الدروز ووجهتنا الحجاز

— الله يحييكم ، أنتم ولد عمنا ، كيف حال الأطرش (يريد أبا على مصطفى الأطرش)

— هو بخير ، وهذا تحرير منه لكم

— تحرير ؟ إيه أبو علي والله إنك لحافظ العهود وإيش تبغون بالحجاز ؟

— نؤدى الفريضة

— الله يحييكم ، يا نواف ، يا ولدى أكرم الضيوف ، وتعيدون عندنا إن شاء الله

— العفو يا زين ، وقتنا قصير ، ويلزم أن نعود بسرعة للشام

— لا لا ، تعيدون رمضان عندنا ، ومن يوم للثاني قريب ، غداً عندنا قضوة (محاكمة) تجى البدو من كل ناح ، وبعد غد العيد ، وعيدكم مبارك عليكم

— علينا وعليك يالأمير

المحاكمة

المدعى — صبحكم الله بالخير ، اليوم يوم الله ، اليوم يوم الحق ، اليوم يوم اليمين ، إبشر يا مذبوح ، احلف يا ذابح ، اليوم يوم الله السلام على الأمير ، السلام على ابن شعلان ، السلام على قاضى العرب

الأمير — وعليكم السلام يا لعرب ، الله أكبر ، الله أكبر ، نزلوا حججكم (أى قدموا براهينكم)

المدعى — يا قاضي بعدل الله . جيتك جدى ، وامشى هدى ، ومصلّى على الله والنبي . ودّى (أريد) منك الحق ، والحق فوق الكل والحق من الله ، لنا بذمة هذا — وأشار إلى بدوى آخر — دم . قتل ابنى وفقدنا الشاهد ، ولزمته اليمين ، فإما برىء ، وإما قاتل ، والقاتل مقتول

الأمير — وإيش اسم غريمكم ؟

المدعى — جديع ابن سمير

الأمير — انهض يا وليدى ، ادفع عن نفسك ، أنت شاب ، وشيخ الفريق ، ولزمك الدين (اليمين) إن كنت بريئاً برّاك الله ، وإن كنت قاتلاً قتلك العدل ، احلف احلف

المتهم — والله يا لنورى ، الحق من الله ، واليمين وزر ، اعفونى منها وأنا أعطى الرجل مية بعير

الأمير — قودوا المير يا لربع ، واعفوا الراجل من الدين واحجبوا دم العباد

المدعى — لا لا ، نريد اليمين حتى نعرف الصح (الصدق)

المتهم — يا لربع ، بالله ومحمد رسول ، إنى مؤديكم ميتان بعير وجوزوا عن تحليفى وتعوضوا الله ، والذى مات مات ، ونحن أقارب وإخوان

الأمير — وإيش عندكم يا لعرب ؟ ميتان بعير تساوى ألفين جنيه . جوزوا عن الدين ، واعقدوا الراية حفار ودفان (أى سماح عن الماضى والحاضر)

— وإيش تقول يا سار ؟ المقتول ابنك ، والله فوقك ، والخطة قدامك (يريدون بالخطة دائرة يرسمها أحدهم على الأرض ليقف المتهم داخلها ويحلف ، ويسمونها خطة سليمان بن داود)

المدعى — والله يالعرب ما أنا بائع دم ابنى بجمال ، أريد من غريمي دين فأما يكون بريئاً فأطلب حق من قاتل ولدى ، وإما يكون القاتل فأقتله بيدى ، (واليمين عندهم فريضة متى فقد الشاهد)

المتهم — يا شيخ ، جز عن تحليفى ، وخذ المير ، فأنا برىء من دم ابنك ، ولو كنت أنا القاتل لما خفت منك ، وورائى كما تعلم عرب الشرارات وأنت أخبر بالشرارات وبأسهم

المدعى — جديع ، تهددنى بالشرارات ؟ أنسيت من هم

(*) الأمير نورى الشعلان أمير قريات الملح ، والحديث بلهجة البدو

الحسن؟ ويوم اللى هزمنا كم مثل النمل الهامل، والله لا أرضى منك بغير اليمين ولو ملكتني كل حلال الشرارات

المتهم — وإيش عليه ، أنا أحلف ، خطو الخطة ، أنا رايح أحلف ، أنا على باب الخطة ، يا عونة الله أنا رايح أحلف ، يا ساتر خف الله . يا خوى وخذ البصران وجز عن تحليفي وأنا برى

المدعى — اليمين اليمين

المتهم — اشهدوا يا لعرب، اسمعوا يا لربع ، أنا بالخطة، وهذه عصاتى وهذه يمينى :

« وحق هالمود ، والرب المعبود ، وخطة سليمان بن داود ، أنا رميت والله قتل » وأنا بوجه ابن شعلان

(أى أنه هو أطلق النار ، والله قتل ، وهو بحماية النورى ابن شعلان والحماية عندهم ثلاثون يوماً فقط ، وبعدئذ إما أن يدفع جنية للقتيل ، وإما أن يقتل)

نجيب العمراوى

الأمية فى العالم

يؤخذ من دائرة المعارف الانجليزية الحديثة أن عدد الأميين فى مصر ٩٢ فى المائة (الصواب : ٨٢) ، وفى الهند الانجليزية ٩٢ ، وفى الصين ٨٠ ، وفى سيلان ٦٦ ، وفى غواتيمالا ٦٥ ، وفى أسبانيا ٦٣ ، وفى البرازيل ٦٠ ، وفى كولومبيا ٦٠ ، وفى البورتغال ٦٠ ، وفى شيلى ٣٩ ، وفى الأورغواى ٣٩ ، وفى الأرجنتين ٣٧ ، وفى فنزويلا ٣٧

وفى الولايات المتحدة وزيلانديا الجديدة وكندا وفرنسا واليابان واستونيا وبلجيكا يتراوح عدد الأميين بين واحد وعشرة فى المائة

أما فى سويسرا والدانمرك وألمانيا وأسوج ونروج وفنلنديا وهولندا وانكلترا ، فعدد الأميين أقل من واحد فى المائة

مستعمرات فرنسا

لفرنسا من الممتلكات ما تبلغ مساحته ١٢ مليون كيلو متر مربع ، تضم نحو ستين مليون نفس . فى أفريقية الشمالية : مراكش ، الجزائر ، تونس ، أفريقية الغربية ، وتشمل : السنغال ، غينة ، الشاطئ العاجى ، الدهوى ، السودان الفرنسى ، موريتانيا ، نيجر . وفى أفريقية الاستوائية : توهاد ، أوبنغى شارى ، توغو ، كرون ، كونغو . ثم جزيرة مدغشقر والصومال الفرنسى ، وجزيرة رنيون

وفى آسيا : الهند الفرنسية وتشتمل على : بونديشارى ، شاندر ناغور ، يا نون ، كاريكال ، ماهه . والهند الصينية وتشتمل على كمبودج ، أنام ، تونكين ، لوس . ثم كونتشو

وفى أمريكا : جزائر سان يسار وميكيلان ، جزائر الأنتيل غينيا الفرنسية

وفى الأقيانوسية : جزر كالدونيا الجديدة ، جزر هبريداس الجديدة وغيرها من الجزر الصغيرة

وإذا جمعنا عدد سكان الممتلكات البريطانية والفرنسية بلغ ٦٠٠ مليون نفس أى نحو ثلث سكان العالم ومساحتها أيضاً تشغل ثلث مساحة اليابسة

فون كلوك وسقوط باريس

كان فون كلوك قائد الجيش الألمانى الذى زحف إلى باريس فى أوائل الحرب الماضية ، وكاد يدخلها لولا واقعة المارن التى قطعت أمله . وقد اطلعنا فى إحدى الصحف الفرنسية على التصريحات التى فاه بها بعد هزيمته فى تلك الواقعة التاريخية ، قال :

« أنا لم أضع خطة الزحف إلى باريس كما قيل ، إذ لم يخطر على بالى أن سقوط العاصمة الفرنسية يؤدى إلى إخضاع فرنسا وإجبارها على التسليم ، بل كنت أعتقد أن عزل فرنسا عن حلفائها هو السبيل الوحيد إلى إخضاعها ، وأن عزلها لا يتم إلا باحتلال سواحلها

كان الامبراطور غليوم يحضنا على الزحف المتواصل ، لكى نستولى على باريس ونضرب معنويات الحلفاء فى الصميم ؛ وقد أعد علم ألماني كبير مساحته ٤٠٠ متر مربع ليرفع على برج إيفل بمداحتلال باريس، وكان الموعد المقرر لدخولها فى الثانى من سبتمبر غير أن أعجوبة ظهرت فى الجيش الفرنسى أنقذت عاصمته وأبطلت خطتنا ، فقد اكتشف طيارونا وكشافتنا أن ذلك الجيش الذى كنا نظنه ممزقاً عاجزاً عن الدفاع قد أعيد تنظيمه بسرعة غريبة واستعاد عزيمته ووقف مكانه وقفة المستقتل الذى يؤثر الموت على التراجع

ما كنا نتوقع قط أن رجالاً يتقهقرون أمامنا عشرة أيام متواصلة يتحولون بين يوم وآخر إلى جلاميد لا تزحزح عن أماكنها . تلك هى العجيبة التى لم يرو مثلها التاريخ الحربى ! »

من ذكريات الحرب الماضية - داء فرنسا قديم

كتب مسيو بوانكاريه في مذكراته اليومية بتاريخ ١٣ أغسطس ١٩١٤ ما يلي: «عرفت اليوم من الجرائد أن مدافع الألمان ما برحت منذ صباح أمس تضرب بون آمسون. ويظهر أن وزير الحربية يجهل ذلك. وقد ألححت عليه أن ينبّه باسمه واسمي أركان الحرب إلى إهمالها»

وكتب بتاريخ ١٦ أغسطس: «ما أزال بين الشك والقلق والانتظار فلا أعرف عن الحركات الحربية في جبهة القتال إلا النزر اليسير مما ينقله إليّ الضباط. ولما أشير عليّ بزيارة خطوط النار استشرت وزير الحربية فاستصوب فكرتي، ولكنه رأى من واجبه أن يستشير أولاً أركان الجيش العليا التي لم تر زيارتي في الحالة الحاضرة مناسبة فعدلت عنها ممتثلاً. وأراني كأحد أولئك الملوك الكسالى الذين يقضون أيامهم في الخمول والدعة فالجيش اليوم هو صاحب الكلمة العليا ولا مندوحة لي عن السكوت والامتثال»

وفي تلك الأثناء جاء كليمنسو رئيس الجمهورية وشكا إليه أن أركان الجيش تخفي اندحار الجيوش الفرنسية وتذيع انتصارا وهميا، وأبلغه أن الألمان أسروا طابوراً فرنسياً بأسره ونكلوا بآخر. فقال بوانكاريه إنه يجهل كل ذلك، لأن أركان الجيش لا تمده بشيء مما يجري في ميادين القتال، ثم قال: «لقد طالبت مراراً فما كنت أجاب إلا بالسكوت»

وكان موقف فرنسا يزداد حرجا بين يوم وآخر، فالألمان في بلجيكا كانوا يتقدمون بسرعة، والإنكليز تراجعوا حتى ڤالنسيان موبوج، والجنرال جوفر أمر جيوشه بالانسحاب. وفي ذلك يقول بوانكاريه في يومياته: «أردت وأنا بعيد عن خطوط القتال أن أسعى إلى «الاتحاد المقدّس» بتأليف وزارة جديدة فصدمتني المنازع الشخصية والمشاكسات السياسية. إن فيفياني (رئيس الوزارة يومئذ) محاط بجيوش من المطامع، وقد ذكر لي في جملة المرشحين للوزارة الجديدة بعض أسماء يستحيل قبولها لأنها تدعو إلى الخجل. عاد إليّ ميلران وصرّح بأنه لا يقبل وزارة الحربية إلا إذا خوّل حق الاتصال مباشرة بالجيش المحارب»

وأراد أوغانيجر وزير البحرية أن يحمل مسيمي على الاستقالة من وزارة الحربية، فتظاهر بالإشفاق على صحته قائلاً له بلهجة تجمع بين الجد والدعابة: «إن دلائل الجهد ظاهرة عليك، فأنصح لك نصيحة طبيب أن تترك مهمتك الشاقة التماساً للراحة، وإلا اعترتك السوداء». فوقع هذا الكلام في نفس الجنرال مسيمي موقع الرضى، فاستقال من منصبه، وذهب إلى ساحة القتال يقود أحد الجيوش

وذكر بوانكاريه أيضاً في يومياته: «طالب المسيو بريان بوزارة العدل، فتخلى له عنها المسيو بينفيني مارتان مثال الوداعة والإخلاص. وطالب دلكاسه، وهو أكثر تمنتاً من بريان بوزارة الخارجية؛ وقد أسمعني الكلام التالي: «إن لاسمي تأثيراً كبيراً لا يستطيع أحد إنكاره. لقد طالما سفهوا سياستي التي رمت إلى تطويق ألمانيا، ولكنها انتصرت أخيراً. فأنا الذي أوجد الاتفاق مع انكلترا، وأنا الذي عقد المحالفة مع روسيا. ولا شك أن العالم يتوقع أن يراني في كي دورسي». إن لدلكاسه خدمات وطنية جليلة لا تنكر، وكان خليقاً به ألا يذكرها في ذلك الوقف الحرج الذي كان يتطلب التضحية قبل كل شيء. ولكنه أبى إلا وزارة الخارجية التي كان يديرها بمهارة فائقة المسيو غاستون دومرغ الفرنسي الصادق. وشاء ڤيڤياني إزاء تصلب دلكاسه أن يتنزل له عن رياسة الوزارة، فقال له دومرغ:

— ابقَ في مركزك

فأجاب فيفياني:

— إني أتخلى بملء إرادتي لدلكاسه عن مركزي. ولا بأس أن يعزى ذلك إلى عدم كفايتي؛ ففي الحالة الحاضرة لا يهمني نوع الخدمة ولا مجالها»

وقد أثر فيّ كلام فيفياني كثيراً إذ دل فيه على شخصية كبيرة وإخلاص وطني بالغ فلم أتمالك أن صافحته معجباً مهنئاً



عُرس القــــرية

للأستاذ محمد سعيد العريان

كانت «راجية» تعلم أنها مفارقةٌ المدينة غداً ، ما من ذلك بُدّ ؛ لقد حاولتْ ما حاولت أن تنسأ الأجل إلى الرحيل فلم تظفر بطائل ، وافتنّت في الاحتجاج لرأيها ما افتنّت فلم يستمع لها أحد ؛ وأجمعت الأسرة أمرها على السفر إلى الريف لتكون بمنجاة من ويلات الحرب ... حقاً؟ أيكون الريف أبعد من المدينة عن ويلات الحرب ؟ هكذا زعم أبوها وأخوها وليس لرأيهما معقِّب ...

وراشت راجية آخر سهم في كنانتها؛ فاصطنعت العزم والقوة، وتماسكت من ضعف ورخاوة ، وقالت : ولكن ، يا أبي ، إن للوطن عليَّ حقاً يقتضيني الوفاء . ليس من المروءة أن أفرّ والوطن يدعوني إليه ... ينبغي أن أبقى لأقوم بواجبي في التمريض والإسعاف إذا لم تكن لي طاقة بحمل السلاح للدفاع والمقاومة ؛ ينبغي ...

وقاطعها أبوها : نعم ، ينبغي ، ولكن واجبك هناك ، في القرية ؛ إن إخوتك وأخواتك هناك في حاجة إلى التمريض والإسعاف أكثر من جرحى الحرب !

وابتسم ابتسامة عابسة ؛ لقد كان يعلم أي فتاة هي في رخاوتها وضعف احتمالها ، ولكنه يقاوم حجة بحجة . . .

وصمتت الفتاة برهة وهي تنقل النظر بين أبيها وأخيها وأمها ، ثم همّتْ أن تتكلم حين ارتفع صوت المذياع يعلن أنباء الحرب في الميدان القريب ، ثم سكت ، وتلاشى الصَّدى في الغرفة المغلقة على أربع أنفس قلقةٍ مضطربة تتنازعها أهواء وعلل وآمال على خشية وحذر ورِقْبة . وقال الفتى بعد صمت : لقد بدأت البادئة فما بدٌّ من الخاتمة ... !

وحدّقت أمه في وجهه مذعورة ، وهتفت : صلاح ، أتعني . . . ؟

قال « صلاح » : نعم يا أمي ؛ إنه فرضٌ عليَّ يجب أن أتهيأ للوفاء به

وأطرق أبوه وشفته تختلج ، وعمّ الجميعَ الصمت ... وشعرتْ راجية لأول مرة أنها بإزاء أمر خطير يقتضيها أن تفكر في هدوء وروية . . . وعادت تنظر إلى أبيها وأخيها وفي عينيها سؤال ليس معها جوابه ، وأحستْ إحساس المفارق يودّع أحبابه إلى حيث لا يدري متى يكون اللقاء ؛ ووجدت حاجتها إلى الدمع فأسرعت إلى خلوتها !

* * *

وأغْفَتْ راجيةُ لحظاتٍ واستيقظت ذكرياتُها وأمانيها ، فتعاقبتْ عليها الرُّؤَى والأحلام ، ثم أصبحتْ ... ونسيتْ ما كان من حديث الأمس ومن خبره ؛ فلم تعد تذكر شيئاً إلا أنها مفارقةٌ المدينة بعد قليل لأمرٍ لا تكاد تعرف له وجهاً ولا علة ، وأنها لن تذهب إلى السيما بعد اليوم ، ولن تلقى أصدقاءها وصديقاتها ، ولن تستمتع بما كانت تستمتع من اللهو حين كانت تخرج كل يوم إلى رياضتها بين حدائق الجيزة والجزيرة ومصر الجديدة ، وحضرتها صورٌ عدة ، وانثالت عليها ذكريات ... وذكرتْ ... إن ثيابها الجديدة ما تزال عند الخيّاطة لم تفرغ منها بعد ، وقد كانت حقيقةً بأن تفرغ منها منذ أيام ، لولا أن راجية كانت تؤثر الرويّة في تفصيل ثيابها ريثما ترى أحدث الأزياء فتقيس عليها . ماذا تفعل اليوم ؟ أفٌّ للحرب ! لولاها لكانت اليوم — على عادتها في كل سنة — جالسةً تحت الشمسية الظليلة على شاطئ سيدي بشر ، أو رائحة غادية في معرض زينتها بين كليوباترا وخليج ستانلي ؛ ولكن الإسكندرية اليوم منطقة حرام ، فمَن ذا يخاطر بعمره بين الموت الأحمر من أجل ساعة على الشاطئ العريان ؟ ومَن ذى تحاول أن تشترى بعمرها كلمةَ إعجاب من شاب طائش تستهويه بزّتها وزينتها ؟

...ثم ذكرتِ القرية ... ياه ! مُنذ كم لم تذهب راجية إلى القرية ؟ القرية التي نمَتْها ونمَتْ أباها وما تزال تغذوها بخيرها وبرّها الدائم على عُنف ما تلقى منهم من العقوق ونكران الجميل! لقد فارقتْ راجية القرية منذ سنوات بعيدة، لعلها لا تذكرها،

أو لعلها تذكرها وتنكرها لئلا يكون ذلك نميمة على عمرها الذى تحرص على كتمانه ... ولم تذهب راجية بعد ذلك إلى القرية التى فارقتها طفلة، إلا مرة، مرة واحدة صحبت أباها فى موسم الحصاد؛ وكانت يومئذ فتاة فى أول صحوة الشباب، فما كادت تهبط القرية حتى لت متاعها للرحيل، ثم لم تعد؛ فكيف يريدونها اليوم أن تهيئ نفسها لإقامة طويلة هناك، لا تدرى متى تنتهى، وكيف تنتهى؟

وضاق صدر الفتاة، وخيل إليها أن يداً تشد على رقبتها فتمنعها أن تتنفس؛ وكانت أمها فى حجرتها تعد حقائب السفر!

* * *

وأخذت الفتاة زينتها وخرجت لأمر من أمرها، ولم تنس أن تنظر فى صندوق البريد قبل أن تجتاز الباب! وكانت الظهيرة حامية، والشمس تفرش الشوارع من أشعتها الحمراء، وقد خلت مركبات الترام إلا من الموظفين العائدين إلى بيوتهم يتأبطون صحفاً وأضابير من أوراق الحكومة، أو يحملون إلى أهليهم من الفاكهة والحلوى، أو من الفجل والجرجير ... !

واتخذت الفتاة مقعدها فى الترام، وثمة عينان تلحظانها من مقعد قريب، وكانت فى غفلة بنفسها وما يصطرع فى قلبها من ألم ... هاتان عينان تعرفهما وتعرفانها

ولما همت الفتاة أن تهبط من الترام عند بيت الخياطة، نظرت، فعرفت، فقنعت رأسها وتضرجت وجنتاها حياء؛ ثم مضت فى طريقها لا تكاد تحملها رجلاها ...

وأجدّت لها عيناه ذكرى وألماً، وأطاف بها همٌّ جديد ...

وحاولت الفتاة أن تمحو صورته من خيالها فما أطاقت؛ وكأنما تراءى لها فى تلك اللحظة على غير ميعاد ليكون آخر ما يصحبها إلى القرية من صور المدينة!

... لم يكن «عابد» فتاها الذى تؤمل، ولكنها كانت فتاته؛ لقد كانت تعلم من أمره ما يحسبه هو سراً من سره، فإن له عينين لا تستطيعان الكتمان، تعبّران عن معنًى لا يبوح به لسانه ولا طاقة له به؛ على أنه لم يستطع بكل ما أطاق من قوة الحب أن يشغلها بأمره، ولا هو حاوله؛ ولكنها كانت تعرفه وتحس وقع نظراته؛ وكان ذلك حسبها وحسبه؛ فإنها لتكبر نفسها وهى مَن هى وحيث هى ـ أن ينتهى أملها عنده، وإنها لترى كل يوم من ترى وتسمع ما تسمع، فإن لها فى كل يوم أملاً تأمله بالنهار وتحلم به فى الليل ... كان ذلك وهى فى المدينة المتراحبة التى لا يغيب نهارها حين تغيب الشمس ... أين هى غداً من أمانيها؟ وا أسفا! لكأنما ارتكبت إثماً جوزيت عليه بالسجن إلى أجل غير مسمى!

* * *

لم تكن راجية تعرف من الفرق بين القرية والمدينة إلا هذه الأضواء الساطعة، وتلك الملاهى الساهرة؛ ثم صديقاتها اللائى تراهن كل يوم ويرينها، ليس لهن من حديث إلا عن الأزياء والسهرات وأخبار الفتيان والفتيات؛ وأنشأت لها هذه الحياة التى كانت تحيا أمانىّ وأحلاماً تراوحها وتغاديها فى يقظتها وفى منامها؛ وحين جاءتها «الخاطبة» بأول خاطب يطلب يدها أيقنت أنها من الغاية التى تهدف إليها على مقربة، فراحت تبالغ فى الطلب وتشتط فى الشرط؛ وحرصت من يومئذ على أن تعرف ما لا يعرف إلا القليل عن طبقات الموظفين ودرجات الوظائف وسلالم الترقية لكل طبقة؛ ثم مضت تسترسل فى أمانيها وحلّقت فى أفق بعيد؛ وراحت تتبع عينيها كل منظر، وترعى أذنيها كل نبأ، فاجتمع لها من المعارف بشئون الطبقة العليا من أهل المدينة ما خيل إليها أنها أوشكت أن تبلغ ...

... وعلى حين غفلة صلصل الجرس يدعوها إلى الرحيل ... !

* * *

وعادت الأسرة إلى القرية التى هجرتها منذ بضع عشرة سنة تلتمس حياة جديدة بين أنوار المدينة؛ لقد هجروا القرية يوم هجروها أربعة نفر، وعادوا إليها ثلاثة، وخلفوا رابعهم هنالك مرابطاً ينتظر الآونة التى يدعوه فيها الوطن ليبذل شبابه!

واستيقظت راجية على صياح الديكة من وراء جدار؛ فنهضت من فراشها وفتحت النافذة تسترْوح روح النشاط والقوة ... ومرّ الراعى بنافذتها يسوق ماشيته ... فما إن رآها حتى طأطأ رأسه وأوفض فى السير، ونظرت فى أعقابه، ثم ارتدّت عن النافذة ...

يا لله! وفى القرية كثير من مثل هذا المسكين؟ عظم معروق فى ثوب خلق يوشك أن يحطمه عصف الريح، يقود ماشية تكاد تنشق شبعاً ورِيًّا؛ إنه يؤثر ماشيته على نفسه لتعيش فيعيش بها!

ثم تتابعت أفواج الفلاحين سارحين إلى حقولهم يتبعهم

ولذاتهم ، قد أوقرت ظهورهم بما يحملون ، ومضى النساء إلى عملهن ...

ووجدت راجية ما يشغلها ، فنسيت شيئاً بشيء . ومر يومها الأول وهي ترى وتوازن وتحكم ؛ ولما جلست في المساء على حافة القناة بين رفيقات من بنات القرية يسامرنها ويتحفّين بها ، أحست في نفسها عاطفة جديدة تنموشيئاً فشيئاً ، ورأت في حديث هؤلاء القرويات روحاً ومعنى غير ما كانت تجد من حديث صواحبها في المدينة ...

وأشرق القمر عليها وعليهن وذاب في ماء القناة شعاعه ، ونظرت إلى صواحبها ونظرن إليها فكأنما سكب القمر على قلبها من شعاعه الطهور فغسله مما فيه ؛ وأحست فيضاً من الحنان والحب يغمرها فيدنيها إلى رفيقاتها قلباً إلى قلب وروحاً إلى روح ؛ وذكرت كلمة أبيها :

« نعم يا بنيتي ... ولكن واجبك هناك ... إن إخوتك وأخواتك في القرية أحوج إلى التمريض والإسعاف من جرحى الحرب ! »

بلى ، وإنها لتشعر الساعة بثقل هذا الواجب على عاتقها أكثر ما شعرت في حياتها منذ كانت . إن عليها لهؤلاء المساكين حق الإرشاد والمعونة بكل ما تملك يدها من مال وما يملك قلبها من الحب

وتبدلت راجية مذ طرقها هذا الشعور الجديد ، فعادت فتاة غير من كانت !

وأحبت القرية أكثر مما كانت تبغضها ، حتى لو أن أحداً راودها أن تعود إلى المدينة لتأبت ، وتزينت لها القرية زينة عروس ؛ فكل ما فيها جميل فاتن !

ومضت أيام ، وبعث « صلاح » إلى أبيه :

« أبي !

« ... وكل شيء هادئ ، فليس ثمة خطر مما توقعت أن يكون ...

« وإني لأخشى أن تكون حياة القرية بحيث لا تطيب لكم فيها الإقامة ؛ فإن رأيت ... »

وقرأ الأب رسالة ولده فصباً ؛ لقد كان يقدر - وهو ربيب القرية منذ كان - أنه يستطيع أن يعود إلى ماضيه فيعيش في الريف عاماً أو بعض عام حتى تهدأ العاصفة ويعود السلام والطمأنينة إلى المدينة ؛ ولكن ... ها هو ذا يحس السأم والملالة ولما تمض أيام ... !

واجتمعت الأسرة حول عميدها تفكر وتدبر ، وقالت راجية: أبي ... ولكن المدينة ...

وقاطعها أبوها : لا يا بنيتي ؛ لقد كنا مغالين في تقدير الأمر، وأظن خيراً لنا أن نعود ... !

* * *

ولكن راجية لم تعد إلى المدينة ، ولم يعد أبوها ، لأن ضيفاً عزيزاً هبط عليهم في القرية فتلبثوا لاستقباله ...

لقد أجمع « عابد » رأيه على أمر ، فكتب إلى الأسرة يستزيرها في القرية ، وكان معه صلاح

وتحلق حول المائدة ثلاثة نفر يتشاورون في أمر ذي بال .

وقال عابد ، وقال صلاح ، وقال أبوه ؛ وتركوا لراجية أن تقول الكلمة الأخيرة ؛ وقالتها ، وانتهى النبأ إلى الجيران فتجاوبت الزغاريد من طاق إلى طاق

وقال الفتى لفتاته : والأمر لك يا عزيزتي من بعد ؛ فإن شئت كان العرس في المدينة ، فإني لأعرف كيف تريدينه أن يكون ، وإني ليسرني أن أرضيك ...

وابتسمت راجية وقالت: شكراً يا عزيزي، ولكن، إنني حريصة كل الحرص على أن تكون صديقاتي جميعاً إلى جانبي ، هنا ، وأن يشاركننا جميعاً في الفرح والمسرة !

قال عابد : يسرني ... ولكن ... أرني ... ؟

قالت : لا تبعد يا عزيزي ! ماذا فهمت ؟ ... إن صديقاتي اللاتي أعني ليُلبِّين الدعوة مسرعات ولو كان موعدها غداً !

قال : غداً ؟

قالت : نعم ، والليلة إن أردت ، إنهن غير بعيد !

* * *

واحتفلت القرية كلها بعرس راجية ، لم يتخلف منها أحد ! لم تكن هناك ثريات ، ولا أعلام ، ولا سرادق منصوب ، ولا موسيقى تعزف ، ولا مطرب يغني ؛ ولكن رجالاً أربعة كانوا جلوساً إلى نضد صغير في دوار العمدة ينظرون في توزيع خمسين جنيهاً على أهل القرية ، احتفالاً بزفاف راجية . أولئك أصدقاؤها وصديقاتها ، لم تنس أحداً منهم ، ولم يتخلف عن دعوتها أحد !

محمد سعيد العريان

فهرس الموضوعات للمجلد الأول من السنة الثامنة

فهرس الكتاب للمجلد الأول من السنة الثامنة